اقرأ

محمود كامل

عيون معصوبة

دار المعارف بمصر

عيونٌ معصوبة

محمود كامل

عيون معصوبة

اقرأ ١٤٥
دار المعارف بمصر

اقرأ ١٤٥ — يناير سنة ١٩٥٥



كلمة المؤلف

هذه مجموعة أخرى من قصص مصرية أقدمها إلى قراء هذا الأدب المصرى البكر وهى مجموعة تتسم بطابع أستطيع أن أدعي — دون أن أتهم بالغلو والإسراف — أنه طابع جديد يختلف أولاً عن الطابع الذى كنت أضفيه على مجموعات قصصية سابقة أصدرتها : فى أنها تحررت من قيود « الحطة » القصصية التى تخضع لاعتبارات « العقدة » وحبكتها والرغبة المبيتة فى خيال الكاتب منذ خيوط القصة الأولى على حلها . وتختلف ثانياً عن قصص غيرى . بأنها محاولة للدفاع عن « السمو العاطفى » فى البيئة المصرية الجديدة . وأستميح القارئ عذراً إذا تصرفت هذا التصرف فى ترجمة الكلمة الإفرنجية (romance) بهاتين الكلمتين اللتين قد تنحرفان بالأصل عن مجراه وإن كانتا — فى يقينى — خير ما يعبر عن مغزاه ..

إن الكثيرين من المصريين الذين تلقوا العلم فى أوربا . أو الذين تكررت زيارتهم لها . وقراءتهم لشعر شعرائها . وقصص أدبائها قد تجنوا غاية التجنى على « الفتاة المصرية الجديدة » .

وقد يكون مصدر هذا التجنى مرضاً نفسياً منشأه الرغبة فى « التعويض » عن « مركب النقص » الذى يحس به بعض

ضعاف النفوس بعد أن تبهرهم مظاهر المدنية الأوربية . وأستميح لنفسى أن أصارح قراء هذا الكتاب بأن بعض المتزوجين من أجنبيات قد ساهموا فى محاولة تجريد الفتاة المصرية من تلك الروح الغريزية فيها . الروح « الرومانتيكية » التى تسمو بعاطفتها إلى حيث تتخيل رجلها بطل مسرحية شعرية بدوية هى بطلتها . وأن القدر قد أجرى على لسانيهما تلك العبارات الفطرية الساذجة السهلة التى تتبادلها معه . مؤمنة بطهر عاطفتها . متجردة عن اعتبارات المنفعة أو المصلحة أو « النظر البعيد » التى تلوث نظرة الفتاة الأوربية إلى هذا النوع من العلاقات .

إن القصص التى يضمها هذا الكتاب الجديد تعيش فيها ــ بخيالها ــ بضع أرواح شابة بعيداً عن العالم . على مقربة من أكواخ البدو فى الصحارى القريبة من القاهرة . أو إلى جانب الصخور النائية عن الأجزاء الآهلة بالمصطافين فى شاطئ الإسكندرية . وهذه الشخصيات تتحدث هامسة بعد منتصف الليل لتنقل أسلاك « التليفون » أحاديثها وبعضها تتجاوب ثم تفترق دون أن تتلاقى ومع ذلك فهى تعيش فى صميم العاصمة . وهى تسم العاطفة بطابع خاص . متميز . من حقه أن يسجل فى كتاب .

ومعظم بطلات وأبطال هذه القصص لا أسماء لهم أقدمهم بها . ولذا يلاحظ القارئ أن البطل « هو » والبطلة « هى »

رموز عن نساء ورجال . أعرفهم وأعرف أن أمثالهم كثيرون يعيشون حياتهم قصيدة من الشعر ، يرتلونها مرتفعين عن الأرض فى شبه نشوة متطهرة نقية .

إن العاطفة التى تجمع شخصيات هذا الكتاب ليست تلك التى تنطلق بتفصيلاتها ألسنة السكارى على أرصفة الحانات فى ساعات الليل العابثة . إنها العاطفة التى يعرف الشاعرون بها عبقرية الصمت .

إنهم سعداء . لأن لكل منهم روحاً أخرى تفكر فيه وتعنى به . وتحنو عليه . لا يتحدث عنها أمام الغير . ولا يبحث فى الأنقاض عن ماض بعيد يحيل به حياتهما إلى جحيم مسمم . إن بطلات وأبطال هذه القصص لهم عيون شابة . تلمع عاطفة وولهاً وتلهلها ولكنها معصوبة عن شرور الناس . إنها تقودهم نحو قدر محتوم متجهين إليه راضين هانئين .

لقد سعدت بالحياة إلى جانبهم بعد أن عرفتهم وأحببتهم . وكل ما أرجوه أن أوفق فى تقديمهم إلى قراء هذا الكتاب علهم يسعدون بالتأمل فى حياتهم كما فعلت .

محمود كامل

المحامى

عيون معصوبة

(ساعة مبكرة من ساعات الصباح . التليفون يدق دقات سريعة ثائرة فى غرفته ... هو ... شاب يقطن منزلا مكوناً من غرفتين وبهو حوله إلى « معمل » يقوم فيه بنحت تماثيله الجديدة. أما هى فنى طرف القاهرة الآخر . « فيلا » تحيط بها حديقة صغيرة فى « الزيتون » أحدهما لا يرى الآخر لأن مسافة بعيدة تفصل بينهما)

هى — سعدت صباحاً

هو — سعدت صباحاً يا آنستى . . من أنت ؟

هى — أيهمك هذا ؟

هو — كيف لا يهمنى ؟ ألا أعرف من يحدثنى ؟

هى — واحدة .

هو — أنا واثق من هذا . إن صوتك ليس من الخشونة بحيث يجعلنى أشك فى أنك . أنك فتاة .

هى — هل بدأت ؟

هو — ماذا ؟

هى — هل بدأت تسخر ؟

هو — من قال لك عنى إننى مغرم بالسخرية ؟

هى — يبدو ذلك فى نظرتك .

هو — وكيف تعرفين ؟

هى — رأيتك .
هو — متى ؟
هى — أكثر من مرة .
هو — أين ؟
هى — فى أكثر من مكان . هنا وفى الإسكندرية .
هو — ولكن . .
هى — ولكن ماذا ؟
هو — ولكن من أنت يا آنستى ؟
هى — أوه ! إنك تشوه جمال حديثنا بهذا الإلحاح .
هو — أنا لا ألح . أن معرفة اسمك لا تهمنى إلى الحد الذى تتوهمين .
هى — لو لم تكن مغروراً . . .
هو — عجباً ! أليس من حقى أن أعرف من يحدثنى فى منزلى؟
هى — ستعرف .
هو — متى ؟
هى — فيما بعد . أترك هذا الآن . إننى أريد أن أتعرف رأيك فى أمر يهمنى .
هو — رأيى أنا ؟
هى — أجل
هو — من أين جاءتك هذه الثقة بى ؟

هى ــ لست أدرى . أنه شعور قديم يعود إلى اليوم الذى رأيت فيه أول تماثيلك الرخامية الصغيرة التى كنت تعرضها . ذلك التمثال الذى يمثل المرأة « الغجرية » التى تحمل طفلها على كتفها . أتدرى بماذا شعرت وأنا واقفة أمامه ؟

هو ــ لا أستطيع أن أجزم .

هى ــ شعرت أنك تحمل هم تلك المرأة التى كانت الكآبة تبدو على قسماتها وهم كل امرأة تعسة فى هذا العالم .

هو ــ أخاف من هذا المديح.

هى ــ لا تخف. بالعكس سترى بعد أن تعرفنى إن هناك أشياء أخرى ستخاف منها .

هو ــ مثلاً . . .

هى ــ إننى أعرف أنك لم تحب بعد . . الشىء الذى عليك أن تخافه إذا رأيتنى هو إنك مسوق إلى حبك الأول .

هو ــ لو لم تكونى مغرورة .

هى ــ لا تقلدنى . ولا تسرق كلماتى . . إننى أعرف إنك بعد أن سمعت مديحى خيل إليك أننى امرأة اعتادت أن تتملق الرجال . أنت واهم . . إننى اعتدت على العكس أن أتلقى مديحهم . إننى أنال « نجاحاً » حيثما ذهبت . . هذا الصيف مثلاً . . لقد رأيتك أكثر من مرة فى « جليم » مررت أمامى على بعد بضع خطوات . لا بد

أنك رأيتنى ولو أنك كنت تتعمد إخفاء عينيك بتلك « النظارة » ذات الزجاج الأسود .. لقد كنت أرشق وجه فى ذلك الشاطىء المحتشد بالوجوه الرشيقة . لا أذكر أن رجلاً رآنى دون أن يغرقنى فى سيل من كلمات الثناء والإعجاب .

هو ــ ولمَ كل هذه « المحاضرة » ؟

هى ــ لأن الكثيرين يخيل إليهم إن المرأة التى تبدأ رجلاً بمشاغباتها « التليفونية » لا بد أن تكون دميمة .

هو ــ أنا لا أقل ذلك .

هى ــ ولكنك ربما سمعت الآخرين يقولون .

هو ــ اعتدت ألا أصدق كل ما يقال لى .

هى ــ ستصدق كل ما قلته لك الآن عن نفسى عند ما ترانى .

هو ــ أراك تكررين « عند ما ترانى » كأنك توحين إلىّ أن أطلب رؤيتك .

هى ــ ألا تريد ؟

هو ــ دون أن أعرف من أنت ؟

هى ــ أجل

هو ــ لا أظن

هى ــ أنت صريح . لا . . أكثر من ذلك . جرىء .

هو ــ هذا عيبى .

هى — أتراه عيباً . إننى لذلك أتحدث إليك

هو — هأنذا أستمع إليك

هى — أترى أنك طيب القلب دون أن تعرف !

هو — يضحكنى هذا الوصف

هى — اؤكد لك أنك تظن فى نفسك القسوة . ولذا تسير دائماً عابس الوجه مقطب الجبين . لقد قلت لك إننى رأيتك أكثر من مرة . أتدرى ؟ لقد خيل إلىّ ذات مرة بعد أن رأيتك أن أصيح « ياباى »

هو — ولمَ عدلت ؟

هى — لأننى كنت أعتزم أن أتحدث إليك كما أفعل الآن . ولم أرد أن أستلفت نظرك إلىّ .

هو — قلت لك إننى أستمع إليك .

هى — هل أنت على عجل ؟

هو — لا . . إننى سعيد إذ أجد منك هذه الثقة .

هى — صوتك يوحى بها . ان الموضوع الذى سأحدثك عنه له أوثق الصلة بحياتى كلها . التى تتحدث إليك الآن ليست آنسة كما خيل إليك . إنها زوجة فى الرابعة والعشرين . جميلة كما قلت . تلقت أكبر قسط من التعليم يمكن أن تتلقاه فتاة مصرية . لها ميل طبيعى إلى كل ما هو جميل ونقى . تتذوق الصورة الفنية الموفقة . وتنصت

إلى النغمة الموسيقية حيثما رنت هذه النغمة . . فى خرير الماء المتساقط من أفواه « الساقية » التى تجرها بقرتان معصوبتا العينين وسط حقل « العزبة » أو الرذاذ المرتطم بصخور الجزء النائى البعيد عن شاطىء « جليم » حيث يأبى المصطافون والمصطافات أن يذهبوا لأنهم يحبون — لسخفهم — الضجة ويأنفون من الهدوء. أو فى ارتجاف القطرات المنهمرة على زجاج غرفتها المغلقة فى ليالى الشتاء وتقف طويلاً أمام التماثيل التى تعبر عن عاطفة أو فكرة إنسانية يدق فهمها على غيرها. وهى معروفة بين زميلاتها بسمو ذوقها فى أختيار الثياب . . إنه ذوق أصيل بشهادة الجميع . كما أنها تختلف عن الكثيرات من المصريات فى أنها تستيقظ من نومها مبكرة لكى تسرع أحياناً بارتداء ثوب أنيق من « ثياب » الغرفة وأحياناً أخرى بارتداء « بيجامة » أفرغت فى حياكتها كل ذلك الذوق الذى حدثتك عنه . كما أنها لا تذكر أنها قابلت زوجها أو أحداً من أهله . فى أية ساعة من ساعات النهار إلا وهى متعطرة بالعطر الذى جعلته يحبه كما تحبه هى لأنه عطر شاعر . يرتفع بالروح إلى جو أسمى من الجو الذى يعيش فيه الناس . هذه هى المرأة التى تتحدث إليك الآن لتقول لك إنها رغم ذلك كله تعسة التعاسة

كلها . بل إنها تكاد تكون أتعس نساء الأرض .

هو — وكيف ؟

هى — لأنها تبينت أن زوجها . الرجل الذى أحبته دون سائر الرجال والذى وهبته أعز ما تملك وهو قلبها . قد خانها .

هو — خانها ؟

هى — أجل . خانها مع فتاة أخرى .

هو — ولمَ ؟

هى — وهل هناك أسباب يستند إليها الرجال عادة قبل البدء بخيانة النساء اللاتى يحببنهم ؟

« وسادت فترة صمت طويلة وخيل إليه أن صوت نحيب بعيد تحمله أسلاك التليفون إلى أذنه . وأحس بشعور غريب يستولى عليه نحو تلك المجهولة التى تتحدث إليه ... شعور من الرحمة والرفق واللاعة والحنان »

هو — وماذا تريدين منى يا سيدتى ؟

هى — لست أدرى . إننى أبكى الآن وأنا مرتاحة . ألا يدهشك هذا ؟ حتى البكاء لا أستطيعه أمام الناس . إننى اعتدت أن أبدو أمامهم متظاهرة بالفرح والسعادة . إن من العسير على شابة مثلى فى الرابعة والعشرين أن تثير شماتة الناس بها . لذلك أتظاهر بالضحك وقلبى يدمى . أقسم لك أننى أحياناً أستغرق فى الضحك لأتفه الأسباب حتى

يتعب صدرى . لأننى أكون إذ ذاك فريسة أزمة نفسية حادة من أزمات السخط على هذا الحظ الذى نكبنى وأنا بعد فى سن لا تحتمل أهوال النكبات . لم أرتكب ذنباً. إننى لم أسىء قط إلى أحد . لا أذكر أننى اقترفت إثماً أستحق أن أجازى عليه هذا الجزاء .

هو — إنك أذكى من أن تضعفى هذا الضعف يا سيدتى . من يدرى ؟ ربما مهدت هذه العاصفة التى اجتاحت منزلك لحياة أرغد وأسعد. إننى أذكر قولاً لألفونس دوديه أجراه على لسان إحدى بطلات قصته الخالدة « سافو » . هل قرأتها ؟

هى — أجل . وأكاد أحفظها عن ظهر قلب . ما هو ؟

هو — « إذا أردت أن تحتفظى بالرجل جيداً فاتركى له شيئاً من الحرية وتظاهرى بأنك لم تفطنى إلى زلاته » .

هى — أرجوك ألا تنصحنى على الوتيرة التى ينصحنى بها الآخرون . إننى لم أتحدث إليك لاتلقى هذه العظات التى أعرفها قبل أن أسمعها منك .

هو — آسف يا سيدتى إذا جعلتك تثورين فجأة بسبب هذه النصيحة. هل لى أن أسألك مرة ثانية «ماذا تريدين منى إذن؟»

هى — أن تدعنى أبكى.

هو — فقط ؟

هى — أجل . . دعنى أبكى فقط لأنى محرومة من أن أبكى أمام الناس المتصلين بى . القريبين منى . إن والدتى نصحتنى كما نصحت عجوز قصة « سافو » الصغيرة إيرين أن أغض عينى عن خيانة زوجى واستدلت على ذلك بأن أبى كان فى شبابه قد اعتاد السهر خارج المنزل إلى ساعة متأخرة من الليل وذاع عنه أنه اتصل بإحدى الراقصات . فلما تركته مدة طويلة انتهى بأن ثاب إلى رشده . وعاد إلى أسرته . أنا لا أفهم هذا النوع من النصائح لأنى لا أطلب من الحياة إلا أن أعيش هذه الأعوام القليلة فى الجو الذى كنت أحلم به فى طفولتى . هل يزعجك أن أبكى هكذا بين يديك بضع دقائق فى كل يوم ؟

هو — كلا . ولكن . .

هى — ولكن ماذا ؟ أكاد أثق بأننى أزعجتك .

هو — لا ولكن لمَ اخترتنى لهذا الموقف الأليم ؟ أن أقف مكتوف الذراعين أمام سيدة شابة مثلك تبكى بحرارة .

هى — ألا تعرف لمَ ؟

هو — ربما . . ولكنى أريد أن أسمع منك .

هى — آه لو أنك قللت من هذا الاعتزاز بنفسك . . كنت أظن أننى أصلب رأياً من أن أضعف أمام رجل فأعترف

له وفى أول مرة أتحدث إليه بأمر كهذا .

هو ــ وما هو ؟

هى ــ منذ رأيتك لأول مرة شعرت بانك الرجل الوحيد الذى يمكن أن أثق به . إننى أعرف نفسى عنيدة , ولكن لست أدرى ماذا دهانى بعد أن تحدثت إليك . . ألا تشاركنى نفس الإحساس ؟

إننى أحس . . أحس بأننى مسوقة إليك معصوبة العينين . مادة الذراعين ومع ذلك فإننى أسير على هدى كأننى أعرف أين تقطن. على أن أحداً لم يخبرنى بمكانك ولو سألتنى عنه الآن لما استطعت أن أصفه لك . إننى أتحدث إليك الآن وأنا أضع يدى على عينى كعصابة وأتخيل كل شىء يحيط بك . قل لى . هل أغلقت نوافذ غرفتك لتتقى حر هذا اليوم ؟

هو ــ أجل . ولكنى أشكو من ألم فى عينى اليسرى .

هى ــ لمَ ؟

هو ــ كنت قادماً بالسيارة من الإسكندرية فأصاب تلك العين هواء بارد أثناء الطريق .

هى ــ أوه . إنك تهمل نفسك كطفل مدلل . أعندك بعض أقراص « الاسبيرين » ؟

هو ــ أجل . . . فى درج مكتبى .

هى — وكوب ماء ؟

هو — أتحدث إليك وأنا أمسك بها .

هى — تناول هذا القرص

هو — هأنذا أفعل

هى — أنك ستستريح بعد قليل .

هو — ستسخرين منى إذا قلت لك إننى أشكو من هذا الألم الشديد منذ أمس وأقراص « الإسبيرين » عندى دون أن أذكر أنها هنا .

هى — إلى أن ذكرتك أنا . أكاد أعرف كل شئ عنك دون أن أعيش معك . لقد كنت أقول لك إننى لو عصبوا عينى لأقبلت إليك ووقفت أمام باب منزلك . ثم فتحته وصعدت السلم درجة درجة وبعد ذلك تقدمت على أطراف أصابعى ووقفت خلفك وأنت تعمل فى أحد تماثيلك . .

هو — ولم هذه العصابة على عينيك ؟

هى — لست أدرى . تلك البقرة التى تربط إلى ساقية معصوبة العينين والتى حدثتك عنها منذ برهة لو أنهم رفعوا تلك العصابة عن عينيها لما استطاعت أن تدور حول هذا القدر المحتوم شهوراً وأعواماً . . أنا أيضاً أعرف أننى أرتكب خطأ إذ أسعى إليك . . ولكننى أحس بأننى منساقة . . قلت لك إن شيئاً يدفعنى نحوك وأنا كما

صارحتك عنيدة لو أفقت وفتحت عينى لثرت على نفسى وعليك . ولذا أفضل أن تعصب عيناى لكى أدور حولك كما لو كنت أدور حول قدر محتوم دون أن أتضجر أو أثور . . .

هو — مدهشة .

هى — كنت مدهشة . ولكننى أحسن الآن أننى كغيرى من النساء يتعالين على جميع الرجال ويخضعهن رجل واحد .

هو — ماذا ترتدين الآن ؟

هى — أراك لا تعلق على كلماتى الأخيرة كأنك توافق على أنك أخضعتنى .

هو — ألا أستطيع أن أعرف ماذا ترتدين الآن ؟

هى — « بيجامة » وردية اللون .

هو — إننى لا أحب لون الورد فى ثياب المنزل .

هى — انتظر قليلاً . . إنهم ينادوننى هنا .

« وبعد قليل عادت إليه »

هو — فيم كانوا يطلبونك ؟

هى — لا شىء . . لقد أبدلت « البيجامة » الحمراء بثوب أزرق .

هو — إنه لون مريح .

هى — ما هو الأزرق فى غرفتك ؟

هو — كل شىء فيها . جدرانها . بساطها . غطاء مصباحها

وستر التماثيل التى انتهى نحتها .

هى ــ هذه الستر الزرقاء قد تراكم عليها تراب خفيف .

هو ــ أجل . شىء أشكو منه ولا سبيل إلى رفعه .

هى ــ أميل إلى الاعتقاد أن حياتك مجدبة من امرأة تبعث فيها شيئاً من الحنان . امرأة تفهمك وتعينك على تحقيق أطماعك فى المجد الذى تنشده .

هو ــ أتحدث إليك الآن والقطة تأكل أحد جواربى على عتبة الباب . . وقميص الفراك معلق أمامى دون كى كما تركته فى فجر يوم رأس السنة ، أى منذ أكثر من ثمانية شهور . والعنكبوت يرسم أشكالاً هندسية عجيبة على بعض دواوين الشعر التى تضمها مكتبتى .

هى ــ تخيلنى الآن وقد أقبلت إليك فى غرفتك . أزيل كل ما تشكو منه وأحمل معى باقة من الورد الأبيض أضعها فى آنية خزفية على مكتبك الذى يتوسط الغرفة . . ثم أجلس فى هذا الثوب الأزرق الذى تحبه لأقضى الوقت فى رسم صورة فحمية لأحد تماثيلك التى أحس أنك تعجب بها وتفضلها على غيرها . حتى تعود من عملك فى الخارج فأستقبلك عند الباب . يسبقنى العطر الذى تحبه . أتناول الكتب والمجلات التى تحملها . فأحملها عنك وأضعها مرتبة على المكتب لترتبه كأنه كان

ينقصها . ثم أقدم لك الطعام الذى أكون قد أشرفت على إعداده فى الصباح . ثلاث صحاف فقط . . حساء ساخن وقطعة من اللحم المشوى مع بعض الخضروات وصنف واحد من الفاكهة. هذا يكفى. لا تكن «فجعاناً » إن لديك استعداداً خطراً للسمنة. وقدح من القهوة أعدها بنفسى وأقدمها إليك بانحناء كأنك ملك ثم أطلق ضحكة ساخرة وأنت تتلقى منى القهوة هادئاً وقد خيل إليك أننى جادة إذ أنحنى أمامك. وبعد ذلك أقفز برشاقة فأجلس خلف المكتب لأقرأ لك ما لم تستطع قراءته فى الصباح. الموضوعات التى تهمك إلى أن تمل أنت من الاستماع فأدنو منك وأجذبك كطفل إلى « المقعد الطويل » فأجلسك عليه وأقول لك هامسة فى صوت يرتجف حباً « نم هنا يا طفلى الكبير . إنك فى حاجة إلى الراحة . سأوقظك فى الوقت المناسب لكى تعمل فى التمثال الذى بدأته أمس . إننى أريد أن أرسم له لوحة فحمية. يملؤنى زهواً أن تكون تماثيلك وحى صورى . . . ستشتغل فى المساء ثلاث ساعات. سأكون إلى جانبك وأنت تعمل فى التمثال الجديد وأنا أسجل خطوط التمثال الذى تم صنعه على اللوحة التى أرسمها ولكننى سأتركك فى الدقائق الأخيرة لكى أرتدى ثيابى وأصحبك إلى الخارج فنصعد

بالسيارة إلى مكان ناء بعيد . ثم نترك السيارة ونسير متلاصقين مسافة طويلة. ثم الآن لأنني عثرت اليوم على قصيدة شعر مدهشة سأقرأها لك على ضوء هذا المصباح الأزرق بعد عودتنا فى المساء إلى المنزل . . سأغضب لو أننى رأيتك تتثاءب وأنا أقرأ لك شعرى الحبيب » .

هو — ماذا دهانى . . إن أناملى أضاءت المصباح الأزرق دون أن أشعر . إننى أراك إلى جانبي هنا . . تتحركين فى غرفتى . . فى هذه الغرفة. إقرئى لى الشعر الذى وعدتنى به . هأنذا قد أضأت المصباح الأزرق .

هى — انتظر حتى أحكم إغلاق النوافذ . إننى لا أريد أن نحس بالعالم فى الخارج . يجب أن تنعدم أصوات الناس وضجة العجلات وصخب الطريق. أرى أنك أحسن حالاً بكثير الآن . كما أننى سعيدة أننا أسعد اثنين فى هذا العالم . أليس كذلك ؟ إن العالم فى هذه الغرفة .

هو — العالم فى هذه الغرفة . سمعت هذه الكلمات قبل الآن

هى — وأنا سمعتها معك .

هو — أين ؟

هى — فى السينما . فى تلك القصة التى رأيناها معاً عن الثورة الأرلندية .

هو — عند ما اختلى العاشقان للمرة الأولى .

هى — أجل . كما اختلينا الآن .
هو — ولكن من أنت ؟
هى — تلك التى كانت جالسة إلى جانبك تماماً . فى المقصورة الملاصقة لك .
هو — واسمك ؟
هى — اخبرتك أننى زوجة .
هو — لقد نسيت . اسمحى لى أن أتركك الآن لأفتح النوافذ . إن القطة قد شبعت من أكل الجورب وهى تموء لأنها تلتمس منفذاً للخروج فلا تجد . . إن من حقها أن ترى العالم الذى انقطعنا عنه نحن الاثنين هذه الساعة لنعيش هنا . وحدنا .

حنينى

ليس من السهل أن أنسى ذلك اليوم . كانت سماء هليوبوليس تمطر رذاذاً خفيفاً . وكان جو الشتاء الرمادى يحيط بنا أنا وهى . . . ونحن جالسين تحت سقف مجدول من أغصان أشجار اللبلاب الرفيعة فى حديقة مطعم إيطالى له بابان . . . أحدهما يعرفه المارة لأنه يطل على الطريق العام المار أمام فندق « الضاحية الجديدة » والثانى يطل على طريق صغير هو الذى لا يكاد يعرفه أحد .

وانقضت فترة طويلة لم تنفرج أثناءها شفتاها... ومدت هى يدها فأمسكت بيدى ثم ضغطت عليها... وحدقت بعينيها فى عينى... وذاب كل شىء يحيط بنا . . .

وخيل إلىّ أنا أصبحنا ذرات سابحة فى ذلك الجو الرمادى . .

ذرات رفيعة كتلك التى تحملها أشعة الضوء التى تسلطها آلة السينما على اللوحة البيضاء فتستحيل إذ ذاك إلى مناظر الحب والوله والهيام التى تسيل عبرات العشاق وتستهوى جماهيرهم .

وأحسست بأن أصابعها بدأت تتقلص على أصابعى . . وأدنت فمها من أذنى ثم همست .

— قالت لى ابنة عمى أمس شيئاً لم أكن أريد أن أفضى به إليك ولكننى لا أود أن أخفى عنك شيئاً ولذا سأخبرك به . . قالت لى وصوتها يرتجف « إننى ألاحظ أنك مسوقة إلى خطر يدفعك إليه حب هذا الشاعر الشاب . . كنت دائماً معروفة فى الأسرة بأنك مثال الفتاة العاقلة فماذا دهاك ؟ إننى أنصحك أن تحذرى التهور فى هذا الحب . . . إنه أمر لا نتيجة له » .

وقد استمعت إلى كلامها ثم سألتها فى هدوء .

— وماذا فعلت بهذه النصيحة ؟

— لا شىء سمعتها ضاحكة . . قبلنى .

واقتربت شفاهنا التى كان يخيل إلينا قبل ذلك بلحظة أن الحديث يرهقها .

وتنبهنا توآً إلى أن بعض نوافذ المبانى الكبيرة المحيطة بحديقة المطعم الصغير مفتوحة وقد وقف خلفها سكانها.

وأرسلت هى ضحكة ساخرة ثم قالت :

– أتعرف لماذا أضحك ؟

– لا .

– لأننى خيل إلىّ أن أرفع قبعتى ثم أمر بها تحت هذه النوافذ المفتوحة لأجمع نقود هؤلاء السكان المتطفلين . . .

– وكيف ؟

– ألا تذكر تلك الجوقات التى تجوب الطرقات تتقدمها موسيقاها تعزف بها تحت النوافذ المفتوحة وتجمع نقوداً من أصحابها ؟ إن هؤلاء السكان قد شاهدوا شيئاً لم ينتظروا مشاهدته اليوم . . عاشقين شابين تنقضى الساعات وهما يتبادلان نظرة طويلة ممتدة لا تمل ولا تتعب . . .

* * *

انقضت عشرة أعوام على ذلك اليوم . .

لم أعد أراها . . . لأنها سمعت نصيحة ابنة العم التى حذرتها من حب الشاعر الشاب. الحب الذى لا ثمرة له !

لم أعد أسمع شيئاً عنها . . . ولست أعرف أين هى . . . ولا كيف تعيش ؟

ولكن حنيناً إلى ذلك اليوم البعيد يربطنى بتلك الذكرى

٢٦

كلما صادفت فى طريق ما جوقة من تلك الجوقات الشعبية التى تجوب القاهرة تعرض ألعابها ثم يرفع زعيمها قبعته ليتلقى نقود المشرفين من النوافذ المفتوحة . . .

أحياناً أقف ثم ارفع بصرى إلى النوافذ لعلنى أراها . فلما أتبين أنها ليست هناك أتابع سيرى . . .

واعتقد أنها . هى الأخرى تذكر ذلك الحديث الذى دار بيننا بعد ظهر ذات يوم فى حديقة المطعم الإيطالى وأنها تتأثر بنفس الحنين كلما مرت تحت نافذتها تلك الجوقات العازفة . . .
حنين عجيب . . .

امرأة القدر

(حول مائدة ناصعة البياض خلف الشجرة الضخمة القائمة في أقصى حديقة « ميناهاوس » ليلة من ليالى الصيف . الظلام يخيم على المكان . أنوار حمراء خافتة تتأرجح مع هواء الصحراء من بعيد فى شرفة الفندق)

هى — يبدو لى أنك متعب هذا المساء .

هو — أجل لقد اشتغلت كثيراً . عشر ساعات وأنا محنى الرأس على المكتب أعمل على إتمام ديوانى الجديد. لم أرفعها إلا عند ما دق التليفون إلى جانبي وتكلمت أنت .

هى — ولمَ تركت عملك وأقبلت ؟

هو — أشعر براحة وديعة وأنا إلى جانبك . . أنظر إلى بريق عينيك فى الظلام . . وأتحدث إليك هامساً كأن أحداً يكمن خلف هذا الجذع أخشى أن يسمعنا .

هى — أخبرتنى منذ لحظة أنك اشتغلت عشر ساعات متوالية ومع ذلك فأنت تتكىء بهذه الرأس المرهقة على جذع الشجرة . . هذا الجذع الذى لا يرحم .

هو — أين تريدين أن أضعها ؟

هى — هنا . فوق كتفى .

هو — كتفك .

هى — أية غرابة فى هذا ؟

هو — لا شىء . . ولكن. . لست أدرى لمَ اعتدت ألا أطمئن إلى إراحة رأسى على كتف لين حنون . إن لهذا سبباً قديماً يعود إلى أكثر من خمسة عشر عاماً . .

هى — ماذا حدث إذ ذاك حتى جعلك تفضل أن تريح رأسك فوق هذا الخشب المتوحش على أن تريحها فوق كتفى؟

هو — كنت طالباً فى المدارس الابتدائية . . وكانت « هى » فى إحدى مدارس الراهبات الفرنسيات تقطن منزلاً مجاوراً لمنزلنا فى « الزقازيق » وكنت أتولى مساعدتها فى شرح بعض الكلمات الإنجليزية أو أتكلف ذلك لأتمكن من التحدث إليها بضع دقائق فى كل يوم ... وكان يخيل إلىّ أن يديها تتثلجان كما كانت تتثلج يداى كلما وقع بصرى عليها . . وأن أهدابها ترتجف كلما سمعت صوتى كما كانت ترتجف أهدابى كلما سمعت صوتها يدوى من خلال الحائط الذى كان يفصل منزلينا إلى أن حمل البريد إلى والدى ذات يوم شهادة « آخر السنة » وإذا بى أرسب فى امتحان الانتقال . . فأسرعت إلى سطح منزلنا وانتظرت ساعات حتى صعدت هى الأخرى كعادتها فى عصر كل يوم . . فدنوت منها وأنا أبكى بغزارة . . . واتكأ كل منا على السور الذى يطل

على الشارع الذى يشرف بابا منزلينا عليه . . ورويت لها خبر رسوبى فى صوت منتحب حزين . . ثم تذكرت أننى كنت قد شاهدت على لوحة السينما عاشقين فى موقف غرامى يتناجيان والعاشق يضع رأسه على كتف معشوقته . . فوضعت رأسى أنا الآخر والدموع ما زالت منهمرة من عينى على كتفها . وعندئذ فوجئت بيدها تدفعنى دفعاً خفيفاً وهى تقول لى فى ضجر لم تستطع إخفاءه « إن اليوم هو الموعد المحدد لاستقبال صديقات والدتى . ولقد سبق أن نبهتنى إلى أننى لا يجب أن أدخل إلى غرفة « المسافرين » وكتفى ينضح عرقاً . وأنا أخشى أن تلحظ هذا الدمع المنهمر فتظنه عرقاً » . . ورفعت رأسى إذ ذاك ثم شخصت إلى عينيها طويلاً .. لم تكن تمزح بل كانت جارتى الصغيرة جادة فى ملاحظتها الجارحة . .

هى — وماذا تعنى هذه القصة القديمة ؟

هو — منذ ذلك اليوم عرفت أمرين أثرا فى نظرتى إلى المرأة تأثيراً هائلاً .

هى — وهما ؟

هو — أولهما أنه لا يجب مطلقاً أن يبكى الرجل بين يدى الفتاة التى يحبها أو التى يعلم أنها تحبه . وثانيهما أن الفتيات يفضلن ألا يعرف عن أكتافهن أنها تنضح بالعرق حتى

فى أشد شهور الصيف قيظاً على أن تستريح رؤوس الرجال الذين يحببن على تلك الأكتاف .

هى — ألا ترى أنك تغلو فى القسوة إذ تتخذ هذه الحادثة الصبيانية أساساً لحكمك على المرأة التى تحب. أيا كانت هذه المرأة ؟

هو — أعترف يا سيدتى أنها قسوة . ولكننى لا أستطيع أن أتحرر منها . . إنها عقيدة راسخة فى خيالى منذ أعوام طويلة .

هى — تتعب نفسك إذ تصر على التشبث بتلك العقيدة .

هو — يخيل لك فقط .

هى — كيف ؟ أيمكن أن تكون شاعراً دون أن تفتح هاتان العينان عن الألم ودون أن تروى هذا الألم بالدموع .

هو — عند ما أحس بالرغبة فى البكاء لا ألقى امرأة .

هى — أتبكى وحدك ؟

هو — أية غرابة فى هذا ؟

هى — لا شىء ولكننى يجب أن أعترف لك بأن أسعد ساعات حياتى هى تلك التى كنت أرى فيها دموعى تغمر يدى الرجل الذى أحب .

هو — لأنك كنت « تحبين » .

هى — وأنت . ألم تحب قط ؟

هو — لم أحب .

هى — بعد كل هذا الشعر الذى ظللت تكتبه بضعة أعوام والذى يفيض بأسمى عواطف الحب . . . تقول لى الآن إنك لم تحب قط . لا أصدق .

هو — ستصدقين عند ما تعرفين أنى لو كنت أحببت قبل أن أكتب هذا الشعر لما كتبت منه حرفاً واحداً .

هى — كيف ؟

هو — لأن المرأة هنا لا تمهد للشاب المجهول سبيل المجد والعظمة بل تغلق هذا السبيل إذا استطاعت ولكنها تعدو خلف الرجل الذى تعرف أن كثيرات غيرها من النساء يشاركنها عناء العدو خلفه . وهى إذ ذاك تحبه وتتمنى لو أنها كانت عرفته عند ما كان مغموراً . لا يعرفه أحد مع أنها لو كانت عرفته إذ ذاك لعرقلت جهاده نحو المجد لأنها تأبى أن تتيح له الفرصة التى تمكنه من الفوز بإعجاب غيرها . . أترين ؟ أنها حلقة مفرغة .

هى — أى عيب فى أن « تعدو » المرأة خلف الرجل العظيم إذا جاريتك فى أن التعلق برجل ما يعتبر « عدواً » خلفه .

هو — أنا لا أقول إنه عيب . ولكننى أميل إلى الاعتقاد بأن المرأة لا تحب فى الرجل مظاهر رجولة معينة تأسرها بل تحب فيه عناء الوصول إليه . وهذا العناء يبدو كلما

أبعده حرصه على تحقيق المجد الذى ينشده عن متناول الكثيرات . . أريد أن أكون أكثر صراحة فأروى لك أننى أحفظ من ذكريات طفولتى قصة غرام ذات مرة بين ابنة أحد الأعيان المعروفين فى بلدتى وبين شاب جميل . مهيب القامة كان يشتغل صبياً عند « الطرابيشى » الذى اعتدنا نحن صغار الطلبة أن « نكوى » عنده طرابيشنا . . ولقد أخذ ذلك الحب الذى ذاع خبره فى البلدة الصغيرة شكل فضيحة مزرية . وأحنى زميلنا شقيق تلك الفتاة رأسه حياء بيننا . واضطر والدها أن يزوجها من أحد أقاربها وأن يبعدها عن البلدة حتى تنطفىء الفضيحة . . ولكننى كنت مدعواً منذ أيام إلى إحدى الحفلات التى أحياها مطرب شاب معروف . فرأيت عدداً كبيراً من سيداتنا يحيين ذلك المطرب بإلقاء الورد والأزهار وقطع « الشكولاتة » و . . و . . القبلات بل بإلقاء الأجسام تحت قدمى « التخت » فاستيقظت فى خيالى ذكرى الفضيحة الأولى . . لأننى أعلم — كما تعلم أولئك السيدات — أن ذلك المطرب قضى الشطر الأكبر من حياته صبياً عند أحد « النجارين » . . ولو بقى ينشر الخشب لظل كل تعلق به يعد فضيحة يشمئز منها الناس . أما الآن فإننى أسمع الكثيرات من الفتيات

يكتشفن فى قسمات وجهه ولون بشرته وطريقة إلقائه فتنة خاصة تثير التعلق والإعجاب والحب .

هى — إنلك تخيفنى بهذه اللهجة ؟

هو — ولمَ ؟

هى — لأنك تتحدث عن النساء كأنهن قطيع من الماشية التى لا يروق لها أن تسير منفردة بل تفضل دائماً أن تتجمع حول راع واحد وضع عصاته التى يهش بها عليها فى فتحة جلبابه من الخلف لكى تبدو ظاهرة وأخذ يثير الغبار وراءه وهو يسير فى المقدمة .

هو — أترين . لقد بدأت تتحدثين كالشعراء .

هى — وماذا تعنى ؟

هو — أعنى أنك منذ عرفتنى تبينت أنه من الأفضل أن تتخذى لنفسك نفس اللون الذى أتخذه أنا .

هى — من قال لك هذا ؟ إنلك تهذى ؟

هو — ولمَ لا ؟ إننى أهذى أثناء النهار . وأسجل هذا الهذيان على ورق شعراً أبيعه بنقود تكفل لى الحياة التى أشتهيها . فلمَ تنكرين على حق الهذيان . الآن . فى ظلام الليل وتحت سحر هذا الهدوء . وخلف هذا الجذع الضخم الذى يحجبنا عن العالم ؟ أحياناً يخيل إلىّ أن أنقطع عن هذا العالم وأبتعد عن الناس أجمعين فى مكان ناء بعيد...

لا أدرى أين ؟ وأن أنسى كل شىء . . . حتى هذه الكلمات الجارحة التى سمعتها منى الآن.. حتى اسمى و...

هى ــ وماذا ؟

هو ــ واسمها . . . عند ما يخطر ذلك بخيالى أحلم بفتاة إلى جانبى . . طويلة القامة حتى تستطيع أن تضىء مصباح الزيت المعلق فى سقف كوخ صغير من القش أو القماش المغزول من شعر الماشية دون أن تحتاج إلى الصعود على مقعد . لأنه لن يكون لدينا مقاعد . . سمراء لأن الجلد الذى لا يتأثر بهذه الشمس غير جدير بأن يستر قلباً يخفق ويحب . . واسعة العينين حتى أقرأ فيهما كل شىء دون أن أتحدث أو تتحدث هى . . يكفى أن تنظر إلى عينى فى الفجر . عند ما أستيقظ لكى تفهم ما أريد . . قبله على شفتى . . قدح من اللبن المحلوب بيديها من ماشية ترعاها إلى جانب الكوخ . ثم نسير جنباً إلى جنب حتى نصل إلى عين الماء القريبة . فيغسل كل منا وجهه بيديه . . أترك لها أن تتقدمنى لترى وجهها على صفحة الماء المنبسطة كمرآة . . قبل أن تعبث بها أيدينا فتفسدها لأننى أريد أن تحس بأنها جميلة حتى وسط الصحراء . ثم أتبعها أنا . . ونقضى اليوم فى التنقل بحيث لا يضيع أثر الكوخ من

مدى بصرينا . . أحياناً نعدو كمجنونين خلف أرنب
جبلي يحاول الهرب منا حتى يتصبب العرق من جسدينا . .
لن تخشى « هى » إذ ذاك أن يبدو أثر العرق على كتفها
لأن أهل الصحراء لم يعرفوا ولن يعرفوا غرف « المسافرين»
حيث تستقبل المدعوات فى موعد معين من قبل . وأحياناً
تعثر قدمها فتنزل وتسقط وعندئذ أترك الحيوان الفار
لأحملها بين ذراعى وأعود بها إلى العين أغسل جرحها
وأضمده بقطعة قماش أنتزعها من ثوبى . . . وأحياناً
عند ما يقبل الليل . . نستلقى على الرمل . أحدنا إلى
جانب الآخر . فتروى بعض ما تحفظه من شعر لى أو
لغيرى فإذا تعبت وأخذ صدرها ينهدج وهى تروى . .
دنوت منها وأخذت أشخص إلى عينيها لكى أقرأ أنا
الآخر . . شعرى الحبيب . . ديوان الحياة التى طالما
تعشقتها وحلمت بها. سماء الصحراء الصافية. . نجومها
المتألقة التى لا زيف فيها فلا أتعب من القراءة ولو دامت
ساعات الليل كله . لأننى لا أفتح فمى بكلمة وكلما
انتهيت من قراءة صفحة من ذلك الديوان أغمضت
عينيها برهة لكى تفتحهما عن صفحة جديدة أكثر روعة
ونقاء وصدقاً . .

هى — انظر إلى عينى .

هو — أخشى أن أرى الحقيقة .

هى — أية حقيقة ؟

هو — أشباح السيارات التى تحمل السكارى بعد سهرة عابثة إلى منتصف الطريق نحو الإسكندرية والفيوم .

هى — وماذا تريد أن ترى فيهما إذن ؟

هو — أشياء كثيرة لم يرها أحد قبلى .

هى — ولم ترها أنت من قبل فى عيون أخرى .

هو — تغارين ؟

هى — كيف لا أغار وقد قرأت لك أشعاراً عديدة تتحدث فى كل منها عن فتاة جديدة .

هو — من قال لك إنهن متعددات ؟

هى — لأن لكل منهن اسماً خاصاً .

هو — ولكنهن جميعاً واحدة لم تتغير .

هى — من هى ؟

هو — لست أدرى .

هى — كيف ؟ إنلك تهزأ بى .

هو — أقسم لك أننى لست أدرى إلى الآن من هى ؟ قد تكون أنت . وقد تكون غيرك لم يسقها القدر إلى بعد. إنها إلى الآن « فكرة عن امرأة » وليست امرأة معينة أعرفها ويعرفها الناس. يوماً أطلق عليها اسماً ما ويوماً آخر

أفضل لها اسماً غيره . . إننى لا ألجأ إلى الأسماء إلا لأميزها عن غيرها من الفتيات عند ما أناديها ولكن هذا الاسم لا يعنينى . ألم أقل لك إننى إذا ما عثرت عليها سأهرب معها إلى مكان بعيد . وأنسى اسمى واسمها ... إذ ذاك لن يكون هناك ما يدعو إلى أن يكون لها اسم معين . لأنه لن يكون إلى جانبي غيرها . ستسمع ندائى فتحضر مسرعة . صفير خفيف يكفى . أما هنا مثلاً فلو صفرت لك دون أن أناديك لضاع الصفير وسط أصوات أبواق السيارات الصاعدة فى الطريق القريب . وجلبة الموسيقى التى تعزف خلف شرفة الفندق .

هى — إن هذا الحذاء يضايقنى أشعر برغبة فى أن أخلعه وأسير حافية القدمين .

هو — ولكن حصى هذه الحديقة مدبب الأطراف .

هى — لا أخشاه .

هو — كيف ؟

هى — أريد أن يسيل الدم من قدمى فتحملنى حملاً إلى السيارة.

هو — مجنونة .

هى — ولكننى تلك التى كنت تبحث عنها .

هو — ومن أين لك هذا ؟

هى — قرأته فى عينيك .

هو — ماذا قالتا ؟

هى — قالتا لى . . « اقتربى . . إننى أحس براحة إلى جانبك لم أحس بمثلها من قبل . أين كنت طول المدة التى ظللت أبحث فيها عنك ؟ خيل لى أكثر من مرة أننى عثرت بك . . إلى حد أننى عدوت ذات مرة وسط الزحام الحاشد فى أحد فنادق القاهرة الكبرى التى كانت تحتفل بليلة عيد الميلاد أدفع الناس لأشق طريقى إليك فلما وصلت وجدت أننى كنت مخطئاً . كانت فتاة أخرى تشبهك لها قامتك ولون شعرك الفاحم . وجلدك الصافى السمرة فى لون القمح الذى نبت فى واحة لا تغرب عنها الشمس . . ولكن ليس لها عيناك . ومرة أخرى خيل إلىّ أننى انتهيت بالعثور عليك . . كنت بين ذراعى أدور بك حلقة الرقص فى حانة الطاحونة الحمراء «ببودابست » . كانت صورة منك . . كدت أحدثها عن الكوخ المصنوع من القش وشعر الماشية وعيون الماء الجارية على بعد خطوات منه . والأرنب الصحراوى الفار ولكنها أرسلت ضحكة ثملة عالية فتنبهت إلى أنها ليست أنت » .

هو — « يرفع رأسه عن جذع الشجرة ويدنو منها » .

عجباً ! إننى تحدثت فى شعرى عن تينك الفتاتين . .

فتاة الفندق فى عيد الميلاد وفتاة الحانة الراقصة فى بودابست . . ماذا تقرأين أيضاً ؟

هى — « إننى أعرفك منذ مدة طويلة . . منذ بدأت أبحث عنك عرفت كل شىء . لا تدهشى إذا قلت لك إن أول البحث عنك لم يرهقنى . . لأنك كنت دائماً قريبة منى . أحياناً كنت أطلب منك أن تسهرى إلى جانبى حتى الصباح فى ليالى الربيع بغرفة مكتبى ... أنا خلف المكتب وأنت فى ثوب الغرفة جالسة على المقعد الذى أمامى تماماً تعملين فى حياكة شىء تعدينه لى كى أرتديه فى الشتاء فإذا شعرت بأن العمل أرهقنى نهضت فطبعت على فمى قبلة ثم غادرت الغرفة لكى تعودى بقدح من عصير الأناناس فإذا سألتك لم تصرين على أن تقدمى لى هذا الشراب » ؟ — أجبتنى نفس الجواب الذى لم يتغير « أنه شراب الغابة التى يحلم كل منا بالحياة فيها إذا ما تحققت أمالك فى كتابة الشعر واعتزلت العالم » وأحياناً أخرى كنت أتخيلك إلى جانبى نشاهد معاً إحدى قصص السينما . . وأدنى شفتى من أذنك لأهمس فيهما بترجمة بعض العبارات الإنجليزية التى أعلم أنك لا تفهميها وكان هذا الخيال يشتد بى ويتسلط علىّ إلى حد يدفعنى إلى أن أختار لى مقعداً

خالياً إلى جانب مقعدى . . هو مقعدك » .

هو — « يمسك بيديها » — هل قرأت كل هذا ؟

هى — أجل وأكثر منه . .

هو — ماذا أيضاً ؟ إننى أرتجف لأن كل هذا الذى تذكرين قد خطر لى تماماً . تحدثى . . . تحدثى .

هى — انظر إلى عينى . . ها أنذا قد أدرت ظهرى إلى الطريق الذى يذكرك بالعالم الذى تريد أن تنفصل عنه . . وبالناس الذين ترغب فى أن تبتعد عنهم . . ماذا تقرأ فيهما ؟

هو — كل الأشياء التى أوحت إلىّ بأحب شعرى إلىّ . . و . . ولكنك تبكين . . إنك تبكين يا حبيبتى .

هى — لأننى أعرف أنك الآن تجتاز إحدى الأزمات التى لا يفرجها إلا البكاء . ضع رأسك على صدرى هكذا . . أجل هكذا . . .

هو — سنفترق الآن . . ستعودين إلى منزلك . وسأعود أنا إلى منزلى . . .

هى — ولكننى سأحس برأسك مستريحة على صدرى حتى الصباح . خفقات قلبى ستؤرجحك أثناء النوم كأنك طفل عنيد . . . يجب أن تعترف بأنك عنيد حقاً . . . ضع قدح اللبن على المائدة الصغيرة إلى جانب فراشك قبل أن تنام . . . فإذا فتحت عينيك فى الصباح فأخف

رأسك تحت الوسادة ثم نادنى بصوت عال « أين لبن الصباح ؟» وبعد ذلك ارفع الوسادة ومد ذراعك لتناول القدح ..

هو — وبعد . . .

هى — اشتغل . . اشتغل طول النهار . إنك شاب يجب أن تتحقق لك كل الأحلام التى تداعب خيالك . . . كلما تحقق مجدك سريعاً اختصرنا الطريق إلى العزلة التى ننشدها . . . لا تخف من إحناء رأسك على المكتب . . . غداً سأحضر لك بثوب لا كتف له .

قارئات الحب :

لم أكن أتصور عند ما تحدثت إلى . . . الليلة أن هذا الحديث سيرسم الخطوط الأولى لمغامرة عجيبة جديرة بأن تسجل مراحلها فى أكثر من قصة طويلة .

كان صوتها خافتاً مرتجفاً . يتسق مع الساعة المتأخرة من الليل التى اختارتها للتحدث بالتليفون . . . لم تترك كلمة إعجاب إلا أسبغتها على حتى بعثت الزهو والغرور إلى خيالى الذى كان — أيامئذ — طفلا . ما زلت أذكر أنها قالت لى فى حرارة متأججة .

— يدهشنى أنى كلما قرأت لك زدت اعتقاداً بأن الأفكار التى طالما ملأت فراغ رأسى فى ساعات خلوتى إلى أزهار « الكريزانتيم » فى حديقتى لم تخطر لرجل آخر غيرك . . .

أنت وحدك كنت جالساً على الدوام خلف إحدى أشجار الحديقة تقرأ أفكارى وتقدرها وتشاركنى فيها . . عجباً . أيمكن أن أعثر بك هكذا فجأة بين آلاف الرجال . .

ما زلت أذكر هذه الكلمات . . إنها محفورة فى خيالى . . لأننى كنت إذ ذاك أخطو الخطوات الأولى نحو تحقيق أحلام الشاعر الشاب فى دنيا خيل إلى أكثر من مرة أنها أجدبت من الشعر بل احقدت على الشعر والشعراء .

ومرت أعوام . . كان يكفى أن أراها مرة فى كل عام منها . . فى ثوب أسود أنيق تحمل كتاب السباق تشاهد الجياد التى تخطر أمامها داخل الحلقة كأنها تتأهب للرقص فى حفلة عرس عربى . . كنت أقنع نفسى بأنها . . تشقى كما أشقى أنا بالبحث عن الركن الهادىء المنعزل عن العالم الذى يحقق لها أحلام ساعات الخلوة إلى جانب أزهار «الكريزانتيم» رغم الثياب الأنيقة والسيارات الفخمة وساعات «التظاهر» أمام الناس فى حلقات السباق .

رباه !

كم كانت رائعة تلك الصداقة التى كانت تحتشد فى خيالى كلما شاهدت زهرة من زهرات « الكريزانتيم » فى إناء خزفى على مائدة مطعم فى فلورانس أو فى صدر راقصة من راقصات « ريوريتا » فى برلين . . أو مرسومة بالألوان على لوحة معلقة فى معرض أزياء فى شارع « هوسمان » فى باريس .

وزارتنى . . ذات يوم لتسألنى رأيى فى أمر عجيب . يا للهول !

سألتني رأيي في الانفصال عن زوجها الذى لا تحبه للتزوج من قريب لها تحبه منذ الطفولة وخشيتها إذا هى أصرت على هذا الانفصال من حلول كارثة عائلية مالية . سألتها :

ــ إذن أنت تعيشين منذ مدة طويلة مع رجل لا تحبينه حرصاً منك على المال الذى تخشين أن تفقديه ؟ ــ فأجابت .

ــ أجل . . كيف تريدنى أن أضحى ذلك المبلغ الجسيم؟

وخرجت . . من عندى بعد أن تحدثت إليها حديثاً قضائياً أدليت إليها فيه بالرأى الذى اعتاد رجال القانون أن يدلوا به فى أمثال حالتها . . . بعد أن تجاذبنا أطراف حديث قصير . ولكنه حديث ثلجى لا روح فيه .

خيل إلىّ وهى تهبط الدرج أن أقدامها كانت تدوس على كل أزهار « الكريزانتيم » التى أنبتتها حدائق العالم .

وأيقنت بعدها أن قارئات الحب يجدن الحديث عنه ولكنهن لا يجدن الإحساس به .

ذات يوم سألت نفسى وأنا أعصر بين أصابعى زهرة من زهرات « الكريزانتيم »

ــ ما الفرق يا ترى بين السيدة م . . وبين أولئك النساء اللاتى اعتدنا أن نجلس إليهن ساعة عابرة فى ليلة عابثة يوجهن إلينا الثناء على لون « كرافات » أو أسلوب حياكة قميص ثم نفترق فلا نراهن بعد ؟ منذ ذلك اليوم وأنا أكره المرور على الحدائق التى تنبت فيها أزهار « الكريزانتيم » .

امرأة أخرى

هو – شاعر فى الثلاثين من عمره
هى – فتاة فى الخامسة والعشرين ظهرت ذات يوم فى أفق حياة الشاعر .

هى – ولكننى كنت أظن أنك أحببتنى
هو – من أين جاءك هذا ؟
هى – من اهتمامك بى . كان يبدو عليك كلما تحدثت إليك أنك سعيد بهذا الحديث لم تظهر لى يوماً ضجراً منه .
هو – أين هو ذلك الرجل الذى يظهر الضجر من امرأة شابة جميلة فى الأيام الأولى من تعارفهما ؟
هى – لقد بلغ من تعلقك بالحديث معى أنك كنت تقرأ لى طائفة من شعر فرنسى تحبه .
هو – اعتدت أن أقرأ مثل هذا الشعر لفتاة منذ بضعة أعوام فلم أطق بعدها أن أقرأ شعر الحب وحدى
هى – ولكنك لم تشر إلى تلك الفتاة مرة واحدة فى كل أحاديثنا الطويلة .
هو – كنت أتوقع هذا اليوم فلم يكن من السهل أن أفتح لك مغاليق قلبى .
هى – هل كنت تحبها ؟
هو – مرت من بعيد فى أفق حياتى .

هى — كما مررت أنا ؟
هو — إذا شئت .
هى — تخدع نفسك وتحاول خديعتى .
هو — تظنين ؟
هى — إننى واثقة .
هو — إذا كانت هذه الثقة تريحك فافعلى .
هى — لست طفلة حتى تتحدث إلى بهذه اللهجة الساخرة .
إننى أستطيع أن أذكرك بأمور كثيرة تؤيد ثقتى فيما قلته .
هو — مثلا .
هى — لقد ذكرتنى فى الأيام الأولى لتعارفنا بالمرات التى وقع بصرك على فيها . . مرة وأنا أتناول العشاء مع ابن عمى فى شرفة « جروبى » وأخرى وأنا جالسة فى ثوب البحر على شاطىء « جليم » وثالثة وأنا أعدو لاهثة لأودع أخى فى محطة سيدى جابر .
هو — ماذا تنتظرين من رجل يجد أمامه امرأة تصارحه بأنها كانت تتوق إلى معرفته منذ بضعة أعوام وأنها ظلت مترددة فى التحدث إليه حتى استجمعت شجاعتها ؟ أليس من القسوة أن يجابهها بأنه لم يكن يشعر بأن لها كياناً يلفت نظره .
هى — ولكننى فهمت أننى كنت أثير اهتمامك كل مرة رأيتنى فيها . . .

هو — لم تخطئ كثيراً فى ذلك الفهم ولكن . .

هى — ولكن ماذا ؟

هو — ولكننى قبلك اهتممت ذات يوم بركن نصف مظلم فى أقصى حديقة الأندلس بالجزيرة . . ركن منزو لم يكن الكثيرون من زوار الحديقة يلتفتون إليه . . مقعد منحوت فى جذع شجرة توت وسقف من أغصان الكرم الرفيعة وسياج من العشب النامى يحجبه عن ضجة الطريق ولقد بلغ من اهتمامى بذلك الركن أننى تعمدت السؤال عن البستانى المعهود إليه به فعرفت اسمه . واكتسبت صداقته وأوصيته به خيراً . وكنت كلما مررت بذلك الركن أجزلت للبستانى العطاء لكى يعنى به العناية التى ترضينى . . كثيراً ما ذهبت إلى ذلك « العش » وتفقدت جوانبه . . وأزلت بمنديلى الرماد المتراكم على مقعده كأننى أتوقع أن يكتشفه غيرى . . وقد حدث ما توقعته . .. مررت ذات يوم فوجدت عاشقين شابين يجلسان متلاصقين على المقعد. لمحتهما من خلف العشب النامى فابتسمت ثم عدت أدراجى ولم أدخل حديقة الأندلس بعد ذلك قط .

هى — ماذا تعنى ؟ إنك تهذى . . أى شبه بينى وبين ذلك العش المنزوى فى تلك الحديقة ؟

هو — اكتشفته كما اكتشفتك . . وأوحى إلى بكتابة بعض قصائدى التى أحببتها كما أوحيت إلى أنت بكتابة البعض الآخر .

هى — ولكنك تركت ذلك العش عند ما اتضح لك أن غيرك قد اكتشفه . فلم تتعمد إيذائى بهذا الكلام ولم يبلغك عنى أننى نكثت عهدك مع رجل آخر .

هو — علمت أن غيرى قد اكتشفك قبلى .

هى — « حانقة » ماذا ؟

هو — لا تثورى .. إننا تقابلنا لنفترق فلم لا أصارحك بكل شى ؟ .

هى — ولكن هذا كذب .

هو — ليس من السهل أن تعترف المرأة بماض كانت تخفيه .

هى — لم تطالبنى يوماً بأن أقدم لك حساباً عن هذا الماضى .

هو — ولكنك تركتنى أفهم أن لا ماضى لك ؟

هى — ثم . . .

هو — ثم عرفت أن غيرى قد سمع منك الأنات الشاكية التى سمعتها منك . ولذعت أنامله العبرات الساخنة التى جعلتنى أسهر ذات ليلة حتى الصباح أنظم قصيدة خيل إلىّ ليلتئذ أنها أروع قصائدى .

هى — خيل إليك .

هو — أجل . . لقد كرهت تلك القصيدة . ولو استطعت أن أجمعها من المكتبات وأحرقها لما ترددت .

هى — لم ؟

هو — لأن الوحى الذى ألهب روحى ليلتئذ لم يكن نقياً .

هى — إننى سعيدة إذ أسمع منك هذا الكلام . . إنك تحبنى إلى حد أنك تغار من ماضى قبل أن تعرفنى .

هو — واهمة .

هى — لا بل واثقة .

هو — لن أبخل عليك بأن أدعك اليوم وأنا أتحدث إليك حديث الوداع تتعزين بهذا « الوهم » — ولكننى أقسم لك أننى كنت أرجو وأنا أكتب قصائدى عنك أن يراك الناس بعد قراءتها ويشيرون إليك إذ يتبينون تواً أنك « وحى » تلك القصائد . أما اليوم فإن ما يؤلمنى هو أنه شعور بالخيبة لا بالغيرة كما خيل إليك .

هى — لست أول شاعر ألهبت روحه امرأة أحبها الناس من قبل.

هو — ولكننى آخر شاعر يجمع بقايا امرأة لكى ينصب من هذه البقايا تمثالا يحرق تحت قدميه البخور ويخدع الناس فيجمعهم ليشتركوا معه فى ذلك العمل الذليل .. لقد أبيت ذات مرة أن أعهد بدور البطولة فى قصة إلى ممثلة من الممثلات المعروفات اللاتى اعتاد الناس

أن يصفقوا لهن . وأن يملأوا أجـواء المسارح بأصوات الهتاف بأسمائهن . . وقد ظللت أبحث حتى اكتشفت الفتاة التى تصلح فى نظرى للقيام بذلك الدور . . لم يكن أحد قد سمع باسمها . كانت مغمورة وسط دنيا الرياء تبذله الجماهير للمعروفات من الممثلات . . فلما ظهرت فى قصتى ونجحت ظللت أشعر منذ ذلك الوقت أننى صاحب الفضل فى نجاحها وكنت كلما اتصل بى خبر توفيقها كلما زاد إحساسى بأننى اكتشفت شيئاً لم يكن غيرى قد التفت إليه من قبل . لا يهمنى الآن ماذا تفعل فقد علمتها عند ما عهدت إليها بقصتى كيف تحب كما أريد أنا أن تحب النساء. وكيف تبكى كما أحب أنا أن تبكى النساء وكيف تغار كما أحب أنا أن تغار النساء .

هى — ولكننى لست ممثلة . إنك تنس نفسك .

هو — أنت التى تنسين . أنك لم تتقدمى إلىّ إلا لأننى شاعر تقرأين له وتودين أن تعرفى كيف يعيش حياته الخاصة . هاأنذا أقولها لك فى صراحة : إننى أعيش هذه الحياة قصة . بدأت فصولها يوم خفق قلبى بأول خلجه شعرية أحياناً تبكينى وأحياناً أخرى تطلق الضحكة المرحة من أعماق روحى . والمرأة التى تكون إلى جانبى يجب

أن تعرف أنها تلعب الدور الأول فى تلك القصة . فإذا كان قد سبق لها أن لعبت ذلك الدور فى حياة رجل آخر فإننى أشعر على الدوام بخشيتى من شىء ما . كلمة واحدة قد تكون لا تزال عالقة فى ذاكرتها من « الدور » الأول تعود إلى التأوه بها فى غفلة منها أمامى . « حركة » صغيرة كان يقضى الدور الأول بأن تؤديها تجىء فتتكرر أداءها وهى إلى جانبى . « اسم » كان عليها أن تردده وهى « تعيش » فى الدور الأول ربما خانها لسانها فانطلق يردده مرة أخرى بحكم العادة والتكرار . . هذه الخشية تجعلنى لا أستطيع أن أنام وهى ساهرة إلى جانبى تنتظر يقظتى . . وتعلم فى اليقظة أحلامى فى النوم . . يخيل إلى أنها أثناء نومى ستخطئ فتنطق تلك (الكلمة) أو تؤدى تلك (الحركة) أو تردد ذلك (الاسم) فأهب مذعوراً كأن رجلا آخر أقبل ليقذف فى وجهى بماض طويل لم تتصل بى كل تفاصيله.

هى — « فى صوت مرتجف تدنو منه » — ولكن ذلك الرجل لم يقبل بعد . . .

هو — أعرف أنه مقبل عما قريب . . وهذا هو الذى جعلنى أفر منك وأحقد على اليوم الذى عرفتك فيه .

هى — من أين جاءك أنه مقبل عما قريب ؟

هو — أنت .

هى — « تشهق » أنا . كيف ؟

هو — « يبتسم ابتسامة صفراء » ليس هذا حال من تحب حبها الأول .

هى — ماذا تفعل لو أنها كانت تحب ذلك الحب ؟

هو — لا تتكلم بهذا الثبات . ولا تتجلد . أمام رجلها هذا الجلد ولا تقاوم عشرات الأيام كيلا تراه . . بل تتعقبه إذا غاب . وتبكى بين يديه إذا غضب . وتسقط مغشياً عليها فى موقف الوداع أترين ؟ أنك وقفت هذا الموقف من قبل . . أحببت وافترقت عمن كنت تحبين . أنك تتحدثين إلىّ كأنك تلقين « كلام » دور قديم سبق لك أن مثلته .

هى — «تستجمع قواها» ولكنك تتحدث كأنك تودع حبك الأول .

هو — هذا هو الفرق بينى وبينك . لو لم أحب فى كل مرة كأنى أحب للمرة الأولى وأودع للمرة الأولى لما استطعت أن أكتب شعراً .

هى — إذن كنت تخدعنى

هو — نحن الاثنان خدعنا الناس . . إذ قدمنا لهم ذلك الشعر الذى يصف غرامنا . . ذلك الغرام الذى سرعان ما انطفأ إن الناس قد شهدت اشتعال ذلك الحب ولكنهم لن يشهدوا انطفاءه .

هى — ولم ؟

هو — لأنى لو فعلت لكان واجباً أن أذكر أنك اعتدت أن تشهدى مواقف الوداع وليس فى هذا ما تزهو به امرأة مرت ذات يوم فى أفق حياتى .

هى — « باكية » والآن ؟

هو — لا شىء . الوداع .

هى — ولكن عينيك تلمعان بالدموع .

هو — هكذا اعتدت عند ما أشهد مصرع غرام فى قصة حب تعرض أمامى على خشبة المسرح. أو عند ما أقرأ حوار وداع فى قصة ما .

هى — إذاً فما كان بيننا كان « حباً »

هو — أجل . . ثم انطفأ

هى — ربما كنت مخطئاً . اقترب . . انظر إلى عينى . . ربما تبين لك أنه لا يزال يشتعل. أكثر اشتعالا من ذى قبل.

هو — من أنت حتى أنظر فى عينك ؟

هى — كيف . ألا تعرفنى ؟

هو — لا . . إننى لا أعرفك .

هى — ولكننى . . أنا . . أنا التى أوحت إليك بأعز قصائدك إلى روحك وأقربها إلى أرواح الناس .

هو — من قال لك ذلك .. إنك واهمة .. « يضحك ضحكة

جافة » . إنها امرأة أخرى . . امرأة لا ماضى لها . .
أذكريها بالخير يا سيدتى كما سوف أذكرها . . الوداع .

الليلة ليلتنا :

المسرحية مسرحيتى .
وقاعة المسرح الكبير غاصة بالجمهور الذى احتشد كما اعتاد أن يحتشد فى الليالى الأولى للمسرحيات الجديدة .
والمقصورة التى تواجه مقصورتى فيها بضع سيدات وفتيات .
ولم أكن أعرف واحدة منهن .
ولم أعن فى بادئ الأمر بإمعان النظر إليهن .
ولكن لفتة خاطفة تلاقى فيها بصرانا .
أنا وهى .
سمراء . يبدو أنها طويلة القامة رغم اتخاذها أحد المقاعد الخلفية فى المقصورة .
شفتان ممتلئتان ارتجفتا قليلا عند ما لاحظت أن وجهها قد استوقف بصرى الزائغ المضطرب فهدأ عنده .
وابتسمت. فأطرقت هى إلى الأرض .
وانتهى الفصل وانسدلت الستار مسرعة فضجت قاعة المسرح بالتصفيق .
وانفرجت الستار مرة أخرى وتقدم الممثلون والممثلات يردون

التحية ولكننى لم أسمع شيئاً ولم أر شيئاً. كنت لا أزال أنظر إلى تلك السمراء الجالسة على بعد فى مقصورة نائية .

ومد صديق كان جالساً إلى جانبى يده فدفعنى فى رفق لينبهنى إلى وجوب أن أبتسم للجمهور الذى يوجه تحيته إلى قصتى .

ولكننى إذ ذاك كنت أعيش فى جو آخر . فى جو قصة أخرى لم تتم فصولها . بل لم يرفع الستار عن فصلها الأول بعد . كنت أعيش فى ليلة أخرى . غير الليلة التى كان جميع من حولى يعيشون فيها .

وتفرق الجمهور فى فترة الاستراحة .

وغادرت المقصورة لأتلقى تهانىء بعض الأصدقاء .

ودق الجرس . فعاد الجمهور إلى مقاعده .

وعدت أنا الآخر إلى مكانى .

والتقى بصرانا مرة أخرى .

وخيل إلىّ أننى قرأت فى عينيها كل شىء كما قرأت هى فى عينى كل شىء .

لم تلتفت إلى ما كان الممثلون يلقونه على المسرح من كلامى ولكننى خيل إلى أنها كانت تعرف ما سوف أقوله ويرددونه عنى بل لقد عرفت أكثر من ذلك .

عرفت رأيها فى المسرحية . سخطها على بعض ما جاء فيها وإعجابها بالبعض الآخر .

* * *

وهبطت ستار الفصل الأخير .

وضممت أطراف معطفى ثم ألقيت نظرة أخيرة على المقصورة المواجهة وغادرت المسرح عائداً إلى منزلى .

ولم أستطع أن أتحرر من التفكير فى الغادة السمراء التى عاشت معى ليلتئذ . فخيل إلى أننا عشنا — هناك وسط ذلك الزحام الحاشد — منفردين . بعيدين عن الناس أجمعين .

وفى الصباح المبكر حمل إلى البريد مسرحية فرنسية عنوانها « الليلة ليلتنا » .

ومعها هذه الكلمات .

« تقبل هذه الهدية من السمراء المجهولة التى عاشت معك ذات ليلة ثم افترقت على ألا تعود » .

ولم تعد صديقة ليلة المسرحية الأولى .

لم أرها بعدئذ قط .

ولكننى لا زلت أعتقد أنها أكثر من عرفت فهماً لروحى .

لقد فهمت ليلتئذ على الأقل أننى وسط ذلك الضجيج الصاخب كنت أحلم بأشياء أخرى لم يفطن إليها أحد غيرها

كانت هى الأخرى تحلم ذلك الحلم الشعرى .

وكانت « الليلة ليلتنا » نحن الاثنين .

رعدة الذكرى

« الجزيرة التى تبعد عن شاطىء سيدى بشر والتى ترى من بعيد وقد أحاطت بها مياه البحر

صباح يوم من أيام أغسطس . الجزيرة خالية إلا من شاب استلقى فى ثوب البحر على أرضها وقد اتكأ برأسه على يديه منشورتين تحتها . الشمس ترسل أشعتها المحرقة إلى الجزيرة الخالية . يستيقظ الشاب من غفوته على صوت ذراعين يسبحان فى الماء مقتربين إلى الجزيرة .

هو — «مقطبا جبينه. واضعاً يده فوق عينيه ليحجب أشعة الشمس وليستطيع التدقيق إلى وجه الفتاة التى عبرت البحر الذى يفصل بين الشاطىء والجزيرة سباحة » من ؟

هى — « تكون قد وصلت إلى أرض الجزيرة . ساقاها فى الماء وجذعها الأعلى متكىء على رمل الجزيرة . ترفع بصرها إليه . تشهق شقهة طويلة حادة » أنا

هو — كيف استطعت السباحة إلى هنا ؟

هى — ماذا يدهشك فى هذا ؟

هو — منذ ثلاثة أعوام . فى هذا المكان نفسه . كنت لا تستطيعين النزول إلى البحر إلا إذا كنت إلى جانبك .

هى — لأنى كنت أخاف من البحر .

هو — ولكنك كنت تسبحين .

هى — مطمئنة إلى أن ذراعك ستنتشلنى إذا هويت .

هو — ومتى تعلمت السباحة وحدك ؟

هى — عند ما انفصلنا .

هو — كيف ؟

هى — عرفت أنى يجب أن أعتمد على ذراعى لأنى تفقدت ذراعيك فلم أجدهما .

هو — « يطرق إلى الأرض ويفكر » أنا لا أذكر أننا وصلنا إلى هذه الجزيرة .

هى — ولكننا كنا دائماً على الشاطئ ننظر إليها من بعيد كأننا ننتظر اليوم الذى نستطيع أن نصل فيه إليها .

هو — ألا تذكرين لم كنا نصبو إلى ذلك اليوم ؟

هى — أجل « يحمر وجهها » .

هو — لمَ .

هى — لأنى وعدتك أن أعطيك القبلة الثانية فى مكان ناء نكتشفه نحن .

هو — وقد خيل إلينا إذ ذاك أن هذا المكان قد انحسر عنه الماء ليكون ملتقانا الموعود .

هى — ولكنك لم تشأ مع ذلك أن ترهقنى بالسباحة طويلا إلى هنا .

هو — مع أنى كنت أعد الثوانى الباقية .

هى — « تهز رأسها فى بطىء » كانت قد انقضت أربعة

شهور على أول مرة التقينا فيها منفردين .

هو — « مطرقاً إلى الأرض وقد أخذت أنامله تعبث برمل الجزء المغمور بالماء » مساء الأربعاء ٢١ يناير . . .

هى — « مطرقة إلى الأرض وقد أخذت أناملها تمهد الجزء الذى عبثت به أنامله » التقينا أمام باب المبنى المقابل لفندق الناسيونال حيث تقطن حائكة ثياب أسرتنا . ثم حملتنى فى سيارتك إلى خارج القاهرة .

هو — لم نجد مكاناً نذهب إليه لكى نقضى ساعة هادئة بعيدين عن أعين الناس إلا جزيرة الشاى فى حديقة الحيوان .

هى — لقد حاول الخادم السودانى أن يسكب لنا الشاى يومئذ ولكننى أسررت إليه أن يدع الإناء لى وخدمتك. لازلت أذكر جيداً . عند ما انتهيت من سكب الشاى فى قدحك ومددت أناملى لكى ألتقط قطع السكر ترددت قليلا لأنه خطر لى أن أسألك « قطعة واحدة أو قطعتين؟ » ولكننى لم أشأ . خيل لى أننى لو فعلت لدل ذلك على أننى حديثة عهد بصداقتك فوضعت قطعة واحدة .

هو — كما أننى تعمدت أن أرفع « ماسكة » السكر لكى أدعك تضعين القطعة بيدك .

هى — ولما هبط الظلام قمنا نسير فى طرقات الحديقة على غير هدى كأننا تهنا عن هذا العالم .

هو — لقد تمنيت إذ ذاك أن يطول هذا التيه .

هى — حتى يعثر علينا أهلنا ميتين .

هو — أجل. أذكر أنك قلت لى ذلك. أمام قفص العصافير الزرقاء .

هى — « تشيح بوجهها » لا تذكرنى بها .

هو — « مستمراً كأنه لم يسمعها » العصافير التى اجتمعت فى حنو على سلك واحد عند ما رأتنا قد ألصقنا وجهينا بأعمدة قفصها كأنها أرادت تحيتنا .

هى — « يتهدج صوتها » لا تسهب فى إعادة ذكرى ذلك الموقف على سمعى .. رباه .

هو — « لا يزال مستمراً » فلما التقى منقارا اثنين متجاورين منها رأيتنى أمد يدى واقبض على يدك .

هى — كفى . ارحمنى .

هو — وعندئذ تلفت حولك كأنك توحين إلىّ بشىء ما . ولكننى تخابثت وسألتك « لم تلتفتين ؟ » فأجبت فى صوت هامس وأنت تنظرين إلى منقارى العصفورين المتلاقين وقد ارتفعت زقزقة الباقى كأنها زغاريد منتشية « أخشى أن يرانا أحد » فلم أنتظر حتى تتمى جملتك وقبلتك للمرة الأولى وأنا أقول « تخشين وأنا معك » .

« فترة صمت لا تسمع فيها إلا لطمات أمواج البحر لشاطئ الجزيرة » .

هى — فى اليوم التالى تحدثت إلى بالتليفون وطلبت إلىّ أن أذهب إلى ذلك المكان نفسه لأقرأ شيئاً كتبته وأبيت أن تخبرنى به .

هو — هل ذهبت ؟

هى — أجل .

هو — كنت قد أنكرت أنك أطعتنى .

هى — لقد تجاوزت السن التى يليق فيها أن أعاند .

هو — ماذا وجدت ؟

هى — « ترسم بأصبعها على رمل الشاطئ المبلل هذه الكلمات دون أن تنطقها » هنا قبلتها للمرة الا . . . . .

هو — « يمسك بيدها، لكيلا تتم رسم الكلمة » أعرف ما سوف تكتبين . . .

هى — لم تمنعنى ؟

هو — « يرسم بأصبعه هذه الكلمة دون أن ينطقها » .

(الثانية)

هى — شرير .

هو — لم ؟ .

هى — لأنك تغرينى على أن أقترف شيئاً لا يليق .

هو — وهو ؟

هى — أن أخون رجلا أحمل اسمه .

هو — « بعد رجفة » أتحبينه ؟

هى — لا. لقدأحببت مرة واحدة رجلالم ينل منى إلا قبلةواحدة .

هو — أمام قفص الطيور .

هى — فى حديقة الحيوان .

هو — ولكنك وعدته أن تهبيه الثانية فى هذا المكان .

هى — إذا سبحنا إليه معاً . ولكننى وصلت إليه وحدى .

هو — رأيتنى أسبح إليه فتبعتنى .

هى — « تنتفض » من قال لك ؟ لو أننى رأيتك لما أقبلت .

هو — شريرة .

هى — كيف ؟

هو — لأنك أخبرتنى منذ لحظة أنك تجاوزت السن التى لا يليق فيها أن تعاندى .

هى — « تنظر إلى عينيه . ثم تضع يدها على جبينه لتعيد خصلة من شعره المبلل إلى مكانها » كم تقسو على .

هو — تستحقين .

هى — أجل أستحق لأنى رأيتك حقاً وتبعتك .

هو — أنك لازلت تلهثين من شدة ما أرهقتك السباحة إلى الجزيرة .

هى — أقطع هذه المسافة سباحة للمرة الأولى .

هو — ألم تخشى الغرق .

هى — كنت واثقة من أنك ستنقذنى لو أشرفت على الغرق

هو — أترين أن الأمواج قد هاجت فجأة ؟ ماذا كان يحدث

لو أننى سمعت صراخك ونزلت إلى الماء ثم جرفتنا موجة عالية مخيفة كهذه الموجة .

هى — ألم نتمنى ذات يوم أن نتنزه فى غابة مهجورة وألا يعثر علينا أهلنا إلا . . . ميتين ؟

هو — « يرتجف جسمه » — لا بد أنك تشعرين بالبرد هنا «يتلفت حوله» لاشىء أستطيع أن أضعه على جسمك العارى .

هى — « تقترب منه فيطوقها بذراعه » — إن جسمى يرتعد ولكنها ليست رعدة البرد .

هو — أعرف أنها . .

هو وهى « معاً » — رعدة الذكرى .

«فترة صمت طويلة يشتد فيها لطم الماء لأرض الشاطئ التى تحت أقدامهما » .

هو — ماذا . أتبكين ؟

هى — أجل . دعنى أبكى قليلا . إن هذا الماء الذى يلطم الأرض تحت أقدامنا يوحى إلى بالبكاء .

هو — أجل . كنت أريد أن أصارحك بهذا الشعور . لقد خيل إلىّ أن أكفا خفية تحت سطح الماء تلطم الوجه حزناً على تلك الذكرى .

هى — أترى ؟ لقد محا الماء ما رسمته أصابعى من كلمات على سطح الرمل. إنه لا يقرنا على أن من حقنا نبش تلك الذكرى .

هو — ولكننى سأتحداه . سأعيد كتابة تلك الكلمات ثم

ليفعل بها ما يشاء فى غيبتنا .

هى ــ سأساعدك فى كتابتها

هو ــ خطك أجمل من خطى .

هى ــ آه . لقد تجاوزت أنت أيضاً السن التى لا يليق فيها أن تعاند . . أنسيت أنك طالما أنكرت جمال خطى الذى كنت أكتب به رسائلى إليك ؟

هو ــ لقد حاولت أن أرد تلك الرسائل إليك .

هى ــ احتفظ بها كما سوف أحتفظ برسائلك . إن الله يشهد على أن غرامنا لم يتلوث قط . فلم نخشى بقاء تلك الرسائل؟

هو ــ « يبدأ فى رسم هذه الكلمات على الرمل المبتل » . .
(هنا تقابلنا منفردين للمرة الثانية) .

هى ــ « ترسم هذه الكلمة » (والأخيرة)

هو ــ أخشى أن تكونى قد تأخرت

هى ــ أجل ، لنعد الآن

هو ــ ستسبحين ؟

هى ــ إلى جانبك

هو ــ فإذا اقتربنا إلى الشاطىء ؟

هى ــ ابتعد عنى كأننا لم نلتق هنا

« فوق موجة عالية . فى المسافة بين شاطئ سيدى بشر والجزيرة » .

هى — إننى أقاوم لكى أبتعد عنك ولكن الموج يدفعنى دفعاً إليك . رباه ؟ إننى خائفة . لقد اقتربنا من الشاطئ!

هو — لا تخافى . . . لن يرنى الناس خارجاً من الماء معك سأعود إلى الجزيرة .

هى — « مذعورة » وحدك ؟

هو — أجـــل .

هى — كيف . هل جننت ؟

هو — لم ؟

هى — إنك متعب .

هو — أشعر بعد ما رأيتك أننى أقوى من ألف رجل .

هى — ولكن . . . لا . . . لا تعد وحدك

هو — سأعود .

هى — « باكية فى صرخة حادة » أتوسل إليك . لا تعد .

هو — لن يصيب أحدنا سوء مادمنا وفيين لتلك الذكرى البعيدة .

هى — سأقف على الشاطئ حتى أطمئن إلى أنك وصلت سالماً . . . الوداع .

باب سيدى بشر رقم ١ المصطافون والمصطافات يتدافعون للخروج فى الظهر . هى واقفة تنظر إلى الأفق الهابط عند شاطىء الجزيرة وقد أمسكت طفلها بيدها و بدأ القلق على وجهها المتعب . فإذا رأت شبحاً سابحاً قد وصل إلى أرض الجزيرة حملت طفلها ثم قبلته قبلة طويلة . والدموع تنهمر غزيرة من عينيها .

بخـــور :

تسألينى عن رأيى فى المرأة يا صديقتى ؟

إننى أعتقد أن المرأة التى سوف يخفق قلبى بحبها لن تكون واحدة من أولئك اللاتى يتصدرن المقاعد الأمامية من مقصورات دور السينما فى الليالى الأولى ، وقد بان من فورة الأصباغ التى طمست معالم قسماتهن طول الوقت الذى قضين أمام المرايا قبل الخروج . . . ولا واحدة من أولئك اللاتى يتمددن على رمل البلاج فى شهور الصيف يتقلبن فى حركات لو عرضت فى « فيلم » لامتد مقص الرقيب لاجتزازه .

لا . . . . .

إن المرأة التى أحلم بها هى التى تفهم أن حياتها إلى جانبى لن تكون فى مقصورة سينما أو مقهى من مقاهى « البلاج » أو منبر من منابر الخطابة . . . هى التى تحس بأن شخصيتها ستفنى يوم تفكر فى أن تشاركنى الحياة . . .

يوم تعرف أنها ستكون « ظلا » يسير أحياناً إلى جانبى وأحياناً يتقدمنى وأحياناً أتلفت فأراه خلفى . لا يفارقنى وإن خيل إلى أننا افترقنا . . .

يوم تفهم أنها بخور يحترق على مقربة منى وأنا أحرق أعصابى لأسكبها شعراً وقصصاً . . . بخور يتصاعد فى صبر

ورضى ليملأ جو الغرفة بعطرى الحبيب .

يومئذ يا صديقى . أعرف أننى عثرت على المرأة التى أبحث عنها . ولكن . . .

ولكن متى . . .

كم أخشى أن أحترق أنا شوقاً إلى ذلك اليوم البعيد .

اللقـــاء الأخير

قاعة الرقص الكبرى فى سراى الجزيرة بعد منتصف ليلة من ليالى شهر مارس . جموع الراقصات والراقصين تمايل محتشدة فى زحام هائل . الموسيقى تعزف أغنية أجنبية مطلعها

« انى على أهبة الحب
« لأنك فقط إلى جانبى
« عجباً . ولكنك عند ما تكون إلى جانبى
« أحس أنى على أهبة الحب »

هو — أنت هنا ؟

هى — أجل . وقد رأيتنى منذ لحظة وأنا أرقص مع ابن عمى فتظاهرت بأنك لم ترنى ، إنك لم تتغير .

هو — كيف ؟

هى — لا زلت طفلا كبيراً كما عرفتك دائماً. تغمض عينيك عن الأشياء التى لا تود أن تراها وتفتحها حتى التحديق — على الأشياء التى تود أن تراها « ترنو إلى عينيه . ثم تضحك ضحكة قصيرة جافة » لقد شربت كثيراً الليلة .. إنك لا ترحم نفسك بهذه الحياة الثائرة .

هو — لا . . . أنت واهمة .

هى — يبدو جلياً فى عينيك أنك ثمل .

هو ــ لقد قرأت طول اليوم فتعبت عيناى .

هى ــ ماذا قرأت ؟

هو ــ قصة قديمة لكلود آنيه .

هى ــ اسمهـا ؟

هو ــ « عند ما اهتزت الأرض »

هى ــ (تطرق إلى الأرض وتنمتم كأنها تقرأ من كتاب مفتوح)

« لقد نمت طويلا حتى أقبلت فأيقظتنى . . وأخيراً .

هاأنذا إلى جانبك بين ذراعيك حيث كنت . . لقد أحببتك دائماً . ألا تعرف ذلك ؟ أتذكر أول مرة سقطت فيها تحت قدميك . لقد مددت يدك وأنهضتنى كنت خائرة القوى فساعدتنى بقوة وحنان على أن أنهض.ولكن أيجب أن أعترف؟ ماذا تقول عنى إذن ؟ لقد تظاهرت إذ ذاك بأننى فاقدة الوعى لكى أبقى برهة أخرى بين يديك . ثم . . لم أرك بعد ذلك . . مدة طويلة . . أين اختفيت يا شرير ؟. كنت سعيداً ، بلا شك . قل . . أتوسل إليك . قل إنك لم تكن دونى سعيداً . . ولكن . . أخيراً . . لقد استطعت أن تعيش . لم تبحث عنى . . .كان يجب أن تجمع الصدفة بيننا »

هو ــ عجباً أذكر أنني قرأت هذا الكلام .

هى ــ أكثر من مرة .

هو — أين ؟
هى — معــاً .
هو — فى أى كتاب . إننى أكاد أنطق الاسم .
هى — « عند ما اهتزت الأرض »
هو — شريرة
هى — لم ؟
هو — خيل إلى وأنت مطرقة إلى الأرض تتمتمين أنلك تقرئين لكاتب آخر غير كلود آنيه الذى حدثتك عنه .
هى — دائماً ذاك الطفل الكبير . . إنك إنما ذكرته لأنك تعرف أننا صادقناه سوياً ، وأحببناها معاً .
هو — « يطرق إلى الأرض . فى صوت خافت » — أجل . هنالك أشياء كثيرة أحببناها معاً .
هى — لم أتبين ذلك إلا فيما بعد .
هو — مــتى ؟
هى — عندما وجدتنى أختلف مع الآخرين على تفاصيل تافهة .

« جموع الراقصين يشتد احتشادها وتدفعهما بعنف إلى خارج القاعة الكبرى » .

هو — لست أرى ما الذى جاء بى إلى هذا المكان ؟
هى — إننى أدرى أننى اعتذرت عن المجيء ليلة أمس . وأعطيت « التذكرة » التى كنت قد اشتريتها إلى زوجة ابن عمى

ولكننى شعرت برغبة، فى تشجيع هذه الجماعة من صديقاتى فتيات الأسر اللاتى يعلن أطفال المسلولين فابتعت « تذكرة » أخرى وحضرت .

هو — « مبتسما » — إذن فابن عمك الذى كنت تراقصينه متزوج . . وزوجته هنا .

هى — أوه ! لم أقصد مطلقاً أن أشير إلى ذلك . . « تهز رأسها هزات متقطعة بطيئة »، منذ زمن طويل لم أسمع هذه الكلمات اللاذعة . . كنت قد تعودتها . وكم أحسست بالضيق عند ما حرمت منها .

هو — « يزفر نفساً طويلا حاراً » — إن جو هذا المكان قد امتلأ بالدخان . إنه يكاد يلهب عينى .

هى — وهذه الأوراق الأفعوانية أشعر بأنها تتأهب لكى تلتف حول عنقى .

هو — أكاد أختنق

هى — عيناك يبدو فيهما التعب

« الموسيقى تستمر فى عزف هذه المقطوعة من نفس الأغنيـــة » .

« لا حاجة إلى التساؤل
« عما إذا كان هذا الحلم سيتلاشى
« لقد وضعنا قلبينا معاً
« والآن ... أصبحنا شخصاً واحداً
« إننى على أهبة الحب »

هو — عجباً ! ما الذى أتى بنا إلى هنا ؟

هى — إن للموسيقى نغماً أعذب ، ونحن بعيدان عنها . . ولكن .. « تتلفت حولها » .

هو — ماذا ؟

هى — كيف جرؤت على أن أخرج معك ؟

هو — أقسم لك أننى لم أشعر بخروجنا إلا ونحن هنا . جالسين على العشب اليابس .

هى — لقد خطر لى أول الأمر أن أصحبك إلى الباب لكى تعود إلى منزلك ثم أرجع حيث تركت أسرتى جالسة . ولكن قدمى قادتانى معك إلى هنا .

هو — إننا لا نريد أن نعترف بأننا « افترقنا »

هى — « تطيل النظر إلى عينيه » هل افترقنا ؟

هو — إننى أذكر آخر مرة تحدثنا فيها. منذ نحو عام . كان ذلك فى عيد ميلادى . فى ذلك المكان النائى المنحرف عن طريق الفيوم . . كانت ليلة من ليالى الصيف . وكان القمر يغمر الصحراء الهاجعة بضوء هادئ وديع . . وابتعدنا عن السيارة مسافة طويلة ثم استرحنا على الرمل . وساد سكون . خيل إلىّ أننا كنا فى أثنائه نحبس أنفاسنا حتى لا يعكره تهدجها وأخيراً سمعتك تقولين وأنت مستلقية على ظهرك تشخصين إلى السماء « أترى أن

هذه السحب القاتمة التى كانت تتجمع وتتزاحم قد انقشعت بعد قدومنا ؟» فقلت « أجل . إنها اعتادت أن تسفر لنا عن صفاء السماء . . إنها تعرف أننا – دون بقية الأحياء الذين يمرون بهذا المكان – نحمل قلبين فى صفاء هذه السماء . ونقاء هذا الجو» والتفت متوقعا أن تلتقى نظراتنا ولكنك قلت : « لا إنها فعلت ذلك الليلة لدعاء أحسست أننى أريد أن أرفعه إلى هذه السماء الطيبة » – فسألتك «وما هو؟ . . » وعندئذ أجبتنى فى نبرة حارة مرتجفة « أن تهرم إننى أدعو من كل قلبى . أن تهرم سريعاً » فاعتدلت فى جلستى ودنوت منك لكى أتحقق من أنك ظللت إلى جانبى . وأنك أنت التى كنت تتكلمين . ولشد ما دهشت عند ما رأيتك لا زلت تشخصين إلى السماء مفتوحة العينين . ثابتة الأهداب . وقد جمعت يديك تحت رأسك لكى تستريح عليهما . وتمتمت فى صوت ذاهل : « مجنونة » ؟ ولكنك تابعت دعاءك كأنك لم تسمعى وقلت : « إننى فرحة اليوم ، لا لأننا نحتفل معاً بعيد ميلادك . ولكن لأن عاماً جديداً قد تراكم اليوم على عمرك : ولذلك فأنا أشد فرحاً مما كنت فى مثل هذا اليوم من العام الماضى . لو كانت هذه السماء تحبنى

حقاً لأجابت دعائى ولتركتنى أسعد إلى جانبك . هرماً .
أشيب خائر القوى فى حاجة إلى عنايتى وحنانى . .
لن أذوق السعادة ما دمت شاباً توقن بأنك إن افترقت
عنى استطعت غداة الفراق أن تعرف فتاة أخرى تحبك
وتسكب فى أذنها نفس الكلمات التى اعتدت أن
تسكبها فى أذنى لينة رقيقة ناعمة وربما أحضرتها إلى
نفس هذا المكان . وحدثتها عن صديقة خيل لها الحبل
ذات ليلة من ليالى الصيف أن تدعو الله أن تهرم .
ثم تطلقان وسط هذه الصحراء ضحكات ساخرة من
ذكرى تلك الصديقة المجنونة » .

هى — آه . إننى أذكر تماماً كل ما دار بيننا من حديث
ليلتئذ كأنه دار منذ برهة . لست أدرى كيف خانتنى
كبريائى فرفضت أن أصارحك بذلك كله . ولكن
لعلك تذكر أنك سألتنى . « ما الذى جعلك تفكرين
فى هذا كله الليلة » ؟ فصمت ولم أجب . وعدت
تسألنى « لم أعهدك هكذا من قبل . أنك تخيفينى .
فعيناك مفتوحتان منذ برهة . وأهدابك لم تلتق . ماذا
بك ؟ إننى أحس أن هذه الأهداب تنوء تحت ثقل
رهيب » ولكننى لم أنطق . . ولم أغمض عينى . . كنت
أشعر فعلا بأن أثقالا مرهقة تعلوها وكنت أخشى إذا

أنا أغمضت أن تشتد وطأة هذه الأثقال . فقاومت . .
وفجأة مرت تلك العربة القروية المحملة أثقالا من
الفاكهة قادمة من الفيوم فى طريقها إلى الهرم . .
فأجهشت بالبكاء .

هو — أجل . . وصل إلى أذاننا من بعيد صوت الحوذى
« الصعيدى » وهو يرتل ذلك « الموال » الذى مطلعه :

« ياما سقيتنى بايدك م العذاب كاسى
فين الليالى وفين الوصل ووعودك
أنت حبيبى وعارف علىّ وراسى »

ولكنك مع ذلك لم تصرحى بشىء .

هى — وبقيت مصرة على ألا أصرح بشىء حتى . . .

هو — « يخفى أصابعه فى العشب النامى على الشاطىء المنحدر »
حتى قرأت خبر خطبتك فى إحدى المجلات .

هى — لقد عرفت من ابنة خالى أنك صارحتها بأنك فهمت
إذ ذاك لم أجهشت بالبكاء ليلة التقينا فى ذلك المكان
من طريق الفيوم .

هو — أجل . صارحتها بذلك . وكنت حاقداً عليك .

هى — ولكنك كنت مخطئاً .

هو — كيف ؟

هى — لأنى حاولت عبثا أن أخبرك بذلك الإلحاح القوى الذى

كان يطاردنى من كل أسرتى لكى أقبل خطبة الرجل الذى أصبح فيما بعد زوجي . . لم أكن طفلة حتى أعتذر بأن الوقت لا يزال متسعاً أمامى لكى أتروى . ولم يكن المسكين يشينه عيب يمكن أن أستند إليه فى رفض يده الممتدة إلى . وكل إصرار على الرفض لا تفسير له — عند أهلى — إلا أننى متعلقة برجل آخر . . أقسم لك أننى خطر لى أكثر من مرة أن أثور وأصرخ معلنة أننى أحبك . ولكننى لم أفعل من أجل رجل واحد

هو — من ؟

هى — أنت . . أجل أنت . . لم أشأ أن أضعك أمام ذلك الحرج الذى قد يكون مؤلماً لك . لم ترض كبريائى بأن أدفعك دفعاً إلى « طلبي » . وقد كنت أمامك مدى ثلاثة أعوام . فلم تتقدم بذلك الطلب . فضلت أن أشقى محرومة منك .. على أن أشقى إلى جانبك بفكرة أننى ما فزت بك إلا بعد أن رثيت أنت لحالى . . لقد تعذبت كثيراً وسط تلك العاصفة التى اجتاحتنى وقتئذ . ولكنك لم تقدر ذلك العذاب ولم تفهمه . فذكرت لابنة خالى أننى إنما قبلت الزواج من غيرك لأننى مللت حياة التشرد مع شاعر شاب يوماً أسير على قدمى وسط مزارع المطرية حتى تدمى قدماى ويوماً آخر أتناول

الغذاء على أحد المقاعد الخشبية فى الحديقة اليابانية بحلوان . دون مائدة أو صحاف . وليلة أستلقى على الرمل بثوبى فى صحراء الفيوم « تضحك ضحكة جافة » . . كنت واهماً يا عزيزى . فإننى لم أمل الحياة . وشقائى الآن أن الحنين إليها يعاودنى كمرض عضال .

هو — إذن لم أقدمت على التخلص منها ؟

هى — لأننى تبينت أنك ستمل هذه الحياة قبلى . وإذ ذاك ستزهد فى لأننى شاركتك فيها ولأننى لو بقيت إلى جانبك لظللت أذكرك بها . ولذلك دعوت الله أن تهرم حتى لا تعود تقوى على التفكير فى تغييرها . ولكن كبريائى لم ترض لى أن أصارحك بذلك فى لقائنا الأخير

هو — الأخير ! ولكننا التقينا الليلة مرة أخرى .

« تمر إذ ذاك مركب شراعية وسط النيل . تجمعت فيها أكياس أستلقى بعض النوتيه عليها بينما أخذ بعضهم الآخر يعمل فى التجديف »

هى — أجل كان يجب أن ألقاك مرة أخرى . . مرة واحدة بعد أن افترقنا .

هو — لم ؟

هى — لأقول لك نفس الكلام الذى قالته بطلة « عند ما اهتزت الأرض » لحبيبها والذى تلوته منذ برهة بعد أن تعمدت

أنت أن تذكرنى به . « أين اختفيت يا شرير ؟ كنت سعيداً بلا شك . . قل . . أتوسل إليك . . قل إنك لم تكن دونى سعيداً . ولكن . . لقد استطعت مع ذلك أن تعيش » .

هو — كان يخيل إلىّ أننى لا حياة لى بعدك . . وأن كل نسمة استنشقها دون أن تكونى إلى جانبى إنما أختلسها إختلاساً . وكل جرعة ماء أدنيها من فمى دون أن تشاركينى فيها حرام على . وكل زاد أستحله لنفسى دونك جريمة أقترفها فى حق أعز ماض إلى روحى .

هى — ولكنك استطعت أن تلهو وتمرح وأن تجد العزاء عنى .

هو — « ينظر إليها مذهولا » حقاً . كيف حدث ذلك ؟

هى — لأنك لم تهرم ، لأن السماء لم تستجب بعد إلى دعائى ليلة لقائنا الأخير .

هو — أقسم لك أننى أريد أن أهرم . أريد أن أغمض عينى وأفتحهما فأجدنى لك أنت وحدك لا أمل لى إلا إسعادك .

هى — أنت واهم . . إنك ستعود الآن إلى سراى الجزيرة . لتلحق بأصدقائك. لقد لمحتهم وأنا داخلة . فعرفت أنك لا بد أن تكون معهم . ذلك الطبيب الذى قدمته إلىّ ذات ليلة فى « سميراميس » وأخبرتنى أنك رقصت

مع أخت زوجته. نرويجية شقراء . حدثتك عن مسرحية أبسن « البطلة المتوحشة » حديثاً راقك كثيراً . . إنها فى حفلة الليلة . أليس كذلك ؟

هو — لمهذا الكلام الآن؟ أؤكد لك أننى لم أره منذ مدة طويلة.

هى — منذ ذهبت إلى منزله وراقصت أخت زوجته ؟

هو — « يتذكر . بعد تردد » أجل .

هى — « تضحك وهى تربت فى رفق على وجهه » أترى . . لقد كذبت لترضينى .

هو — لا . لم أكذب . إنك تبحثين عن سبب للشجار .

هى — « تقطب جبينها » ولكننى لا حق لى فى أن أغار عليك . هل نسيت أننى زوجة أحمل اسم رجل آخر ؟

« صوت عذب يحمله نسيم الليل من أحد نوتية المركب الشراعية الجارية فى النيل يردد هذه المقطوعة من الموال »

« فين الليالى وفين الوصل ووعودك
أنت حبيبى وعارف علىّ وراسى »

هو — أتسمحين ؟

هى — إن هذا النوتى صوت القدر . إنه يذكرنا بتلك الوعود التى أقسمنا على الوفاء بها . . ثم . .

هو — ثم حنثنا .

هى — بدأت تصبح عادلا . فقد كنت تتهمنى منذ لحظة بأننى أنا وحدى حاولت التخلص من الحياة التى كنا نحياها .

هو — أجل . كنت منجنياً . « يحاول أن يضمها فتبتعد »

هى — آه . لم تهرم بعد . . لقد اعترفت الآن بأنك استطعت أن تعيش دونى نحو عام تحدثت فيه إلى كثيرات غيرى . وأقبلت الليلة إلى هذه الحفلة دون أن تتوقع أن ترانى فكيف تحاول أن تعود إلى ما كنت تفعله عند ما كنت لى وحدى . وكنت لك وحدك .

هو — إننى لا زلت أحبك .

هى — لو كان هذا صحيحاً لما تركتنى أحمل اسم رجل آخر . .

هو — هيابنا نعودإلىالحفلة. لأعلن أمامالناس أجمعين أننى أحبك.

هى — « تهز رأسها وهى تنظر إلى الضوء الهزيل الذى يتأرجح مع النسيم فى مؤخرة المركب الجارية مع النيل » مادمت شاباً وما دامت قدماك تستطيعان حملك إلى أمثال هذه الحفلة . فلن تكون لى وحدى . . إننى أعرفك أكثر مما تعرف نفسك . . لقد كنت أحلم وأنا بين يديك بمثل حياة هؤلاء النوتية . . كنت أود أن أعيش هناك . . بعيداً . . على ظهر هذه المركب الشراعية . معك . أطهى لك طعامك وأغسل ثيابك وأعنى بك . وأجوب أقطار العالم إلى جانبك. ولكن شيئاً واحداً كان ينغص على دائماً ذلك الحلم .

هو — ماذا ؟

هى — أن لكل مركب مهما طالت رحلتها ميناء ترسو عليه . . وإذ ذاك لن أستطيع أن أمنعك من النزول إلى الأرض .

« يسمع بوق إحدى السيارات الواقفة أمام السراى يدق دقات متقطعة » .

هو — ما هذا ؟

هى — إنها ابنة خالى. لا بد أنها لحظت غيابى فأقبلت تستدعينى هيا بنا إلى الأرض .

« الاثنان ينهضان فى بطء ويتبادلان نظرة طويلة . ثم يفترقان » .

« تتقدم هى إلى السيارة التى يكتنفها الظلام الحالك . بينما يسير هو على الشاطىء خلف المركب الشراعية التى لا يزال صوت النوتى يتصاعد منها مرتلا الأغنية الريفية» .

غرام مفقود

هو ــ اطردى هذا الضوء .

هى ــ لم ؟

هو ــ يخيل إلى أنه دخيل يتجسس علينا . . دخيل أكرهه ولا أود ان أتيح له تتبع خطواتنا .

* * *

هو ــ أجل . . هكذا . . إننى أشعر براحة الآن .

هى ــ أين أنت ؟ لا أكاد أراك .

هو ــ هنا إلى جانبك .

هى ــ ولكننى . . ولكننى . . .

هو ــ ماذا ؟ تكلمى . إننى أسمعك .

هى ــ ولكننى لا أتبين الآن لون عينيك .

هو ــ استريحى قليلا من النظر إليهما .

هى ــ لم أقل لك من قبل إن ذلك يرهقنى

هو ــ خيل إلى ذلك .

هى ــ آه . لأنك تحس بذلك التعب عندما تطيل النظر إلى عينى .

هو ــ شريره .!

هى — اقترب . اقترب كم احب أن أشعر بدفء الاقتراب منك .

ولكن الشاعر . كان قد تقدم إذ ذاك فى بطء إلى نافذة الغرفة المطلة على حديقة المنزل الجاثم عند أقصى المطرية وأخذ يشرف على الحشائش الخضراء وقد غمرها ضوء القمر وتبعته هى ثم وقفت خلفه . ورفعت يدها فى بطء فلمست بأطراف أناملها كتفه وهى تهمس كهرة وجلة .

هى — فيم تفكر يا حبيبى ؟

هو — فى لا شىء .

هى — وإلى أى شىء تطيل النظر هكذا ؟

هو — إلى هذه البحيرة التى ملأها ضوء القمر بماء من فضة . . إن هذا الماء يجف أثناء النهار لأنه لا يترقرق إلا وعلى جوانبه هذا العطر الملكى الجميل ألا تشمين رائحة النرجس ؟

ففتحت أنفها الدقيق . . دائماً كهرة وجلة ثم أجابت بعد قليل .

هى — لا . . إننى لا أشم شيئاً من العطر . كل ما يحيط بى هى رائحة التبغ المتصاعدة من ثيابك . هذا التبغ الأمريكى الذى تفضله والذى جعلتنى الآن أفضل أن أملأ من رائحته رئتى على أى عطر فى الوجود .

هو — تغالين !

هى — أقسم لك أننى لا أغلو فى شىء . تذكر ؟ لقد عرفتك منذ ثلاثة أعوام . وشممت فى اليوم الأول رائحة ذلك التبغ تفوح من صدرك وكأنه اختلط بدمى فأصبحت أتبينه تواً من بين عشرات أنواع التبغ الأخرى . إنه عطرى أنا ولو سخر الناس من هذا التعبير . أحياناً نتواعد على اللقاء هنا . فإذا حضرت وأخذت أصعد درجات السلم تبينت تواً ما إذا كنت قد سبقتنى فحضرت قبلى أو أنك لا زلت فى الخارج. عطر ذلك التبغ هو دليلى. يكفى أن أفتح أنفى قليلا لكى أعرف إذا كنت قد صعدت الدرج قبلى أم لم تصعد . ولقد تملكتنى هذه الفكرة إلى حد أن ابنة عمى قد سخرت منى ذات يوم وأنا أقص عليها ذلك فأكدت لى أننى لابد أن أكون قد خلقت امرأة بخطأ مجهول وأن فى أعماقى روح نمرة . أتصدق أننى أشم أحياناً وأنا داخلة إلى حائكة الثياب عطر ذلك التبغ فيتصاعد الدم إلى رأسى وأدور فى أرجاء المكان أبحث عنك وأنا أسأل نفسى « ما الذى أتى به إلى هذا المكان الذى لا يغشاه عادة إلا السيدات ؟ » فإذا لم أعثر بك اطمأن قلبى وهدأ قليلا . وفى الأسبوع الماضى ، أثناء خروجى من

عند بائعة الخيوط التى أحيك بها بعض الأشغال اليدوية شعرت كأن ذلك العطر قد سبقنى وأنك كنت هناك وخرجت قبلى بدقائق قليلة . فهاجمتنى تلك النوبة التى اعتدت أن أصبح فريستها كلما شممت ذلك التبغ وأنت بعيد عنى « كان هو هنا . . بين هذا العدد الكبير من الفتيات » وأخذت أعدو فى الطريق أبحث عنك فى ذلك المكان الذى على مفترق أربعه طرق متفرعه . وتقدمت فى أحد تلك الطرق بضع خطوات ثم أرسلت نظرى إلى آخره فلم يقع عليك وعندئذ خطر لى أنك ربما كنت قد سلكت طريقاً آخر فعدت مسرعة وسلكت الطريق الآخر . ثم أخذت أدور فى تلك الجهة حتى وجدتنى أمام إحدى حوانيت السجاير . هناك . . هناك فقط تنبهت إلى أن فى الإمكان أن يدخن نفس التبغ رجل آخر غيرك . . تصور . . . لم يكن يخطر ببالى أن هذا العالم الفسيح يمكن أن يحتوى على رجل آخر غيرك . . . يحتوى على رجل آخر له نفس تفكيرك . . ونفس ذوقك . . ونفس مزاجك . ونفس ميلك إلى نوع التبغ الذى تفضله .

هو — مجنونه

هى — لست أول من قال لى ذلك . . كلما جاء ذكرك على

لســانى قالت لى ابنة عمى « مجنونة » . إن هــذا النوع من الرجال . . الشعراء الذين يعيشون فى دنيا يرسمونها هم فى خيالهم ويحددون أفقها ويلونونه باللون الذى يشتهون . مجانين . والمرأة التى تتعلق بواحد منهم لابد أن تكون مجنونة هى الأخرى . قد يروق للواحد منهم مرة أن يضحك فيطلب من المرأة التى تهبه قلبها أن تستغرق معه فى الضحك. وقد يفضل مرة أخرى أن يبكى فلا يقبل إذ ذاك منها إلا أن تتقرح جفونها من فرط البكاء إلى جانبه .

والتفت « هو » إذ ذاك لفتة صغيرة إليها وكانت تتكلم وهى لا تزال واقفة خلفه . واضعة أطراف أنامها على كتفه العالية . وأدنى عينيه من عينيها .

هو — ولكننى طلبت إليك أن تشاركينى التمتع باستنشاق عبق النرجس الذى يعطر جو هذه الحديقة فلم تفعلى . . حتى لم تشعرى بأن ذلك العطر يستحق عناء التفكير .

هى — كنت غضبى

هو — كيف ؟

هى — قلت لى عندما تحدثت فى التليفون قبل أن تحضر إنك متعب وإنك اعتدت ألا تستريح إلا مستنداً بكل جسمك الكبير على نظراتى التى طالما شبهتها فى

شعرك بأنها وسائدك الحريرية فلما أقبلت رأيتك تدير ظهرك لى وتقف فى هذه النافذه لتنظر إلى ضوء القمر الذى يغمر أرض الحديقة. والتى شئت أن تقول إنه أحالها إلى بحيرة من فضة ...من قال لك ذلك؟ أية فضة فى هذه الحديقة! إن البستانى قد سافر إلى جرجا لزيارة أهله منذ ثلاثة أسابيع وترك الحديقة مهجورة . . وماسورة المياه التى تغذى النافورة هشمتها فأس فلاحى المزرعة المجاورة فجفت . والحشائش الخضراء أصبحت مرعى البدو الذين يقطنون بخيامهم فى عين شمس ويطلقون أغنامهم لالتهام مثل هذه الحدائق المهجورة .

هو — تغارين من حديقتك .

هى — لا . . . ولكن . . .

هو — ولكن ماذا ؟ كان يخيل إلى أنك تحبين هذه الحديقة كما أحبها أنا . . تذكرين ؟ ليلة تعارفنا . ورقصنا حتى بعد منتصف الليل . لقد غادرنا الفندق الكبير الذى كانت الأنوار الكهربائية تغمر بهوه الفخم بضوئها الوهاج إلى ظلام تلك الليلة الحالكة . . لست أدرى إذا كنت تذكرين كل ما حدث ليلتئذ . كان باب الحديقة الخشبى الصغير مغلقاً وكان الظلام يجثم فوق صدر الحديقة كمارد أسود . وكانت فروع

الأشجار تتلاقى فخيل إلينا أنها أحياء تتبادل الهمس خوفاً ووجلا . وتقدمت أنت إلى الباب ففتحته ثم دخلت منه ووقفت خلفه قليلا وتمتمت فى صوت خافت فى فرنسية حنون « شكراً لقد أزعجتك إذ جعلتك تحملنى إلى هذا المكان . أسعدت مساء مساء يا سيدى » وسمعت وقع خطاك على الحصى وأنت تتقدمين إلى الدرج الرخامى الأبيض الذى يبدو فى الليل كأنه ناب ذلك المارد الأسود وفجأة انقطع وقع خطاك على الحصى الرفيع . وانقضت فترة . . وأرهفت أذنى وأنت تصعدين الدرج دون أن أراك . . .

واستعرضت إذ ذاك ذكريات الليلة كلها . . حديثك الموجز عند بدء تعارفنا عن كتابى الأخير . . ملاحظاتك الهامسة أثناء الرقص عن الأنوار البعيدة التى كانت تبدو خلال الستائر المصنوعة من القطيفة الزرقاء المثبتة على نوافذ بهو الرقص والتى ترسلها مصابيح السيارات الصاعدة إلى الهرم أو الهابطة منه . متأرجحة ثملة كأنها أشباح تشترك معنا فى الرقص . استعرضت كل ذلك وأنا واقف خارج باب الحديقة أرهف السمع منتظراً أن أسمع صوت صعودك درج المنزل . ولكن . . ولكنى لم أسمع شيئاً . . وفهمت أنك واقفة عند أولى

درجات السلم ترددين فى الصعود . . وطغى على إذ ذاك شعور هائل . . وفجأة عدتِ إلى حيث كنت لا أزال واقفاً . . فلما رأيتنى صحت مذعورة « أنت هنا » وعندئذ تقدمت فأمسكت بيدك وسألتك هامساً وأنا أحنى رأسى لكى أتفادى فرع شجرة كان متدلياً على سور الحديقة الخشبى « ماذا بك » ؟ فأجبت « لا . . . شىء . . هل كان هذا الباب مفتوحاً عندما حضرنا؟ » فقلت « لم تسألينى ؟ » وعندئذ أجبتنى « لأنى لم أعتد أن أراه مفتوحاً . . إننى أقضى الليل بمفردى فى هذا المنزل الكبير مع خادم عجوز يغط الآن فى نومه . وأخشى أن يكون قد تسلل أحد من هذا الباب المفتوح إلى الداخل » فأطرقت برأسى إلى الأرض ثم رفعتها ثانية وتمتمت « خائفة ؟ » فأدنيت وجهك من وجهى وشعرت بأنفاسك المتهدجة تغمر وجهى . . وسمعتك تقولين كأنك ذاهلة فى حلم عميق « كنت . . منذ لحظة » فقلت « والآن ؟ » وعندئذ رأيتك تلقين بكل جسمك إلى صدرى وأنت تصيحين فى صوت منتحب « أنت معى » .

هى — ما الذى أهاج هذه الذكرى فى صدرك الآن ؟

هو — رأيتك تتحدثين عن الحديقة وتصفينها بالمهجورة .

حتى خيل إلى أنك تريدين أن تنفريني منها .

هى — هل يغضبك ؟

هو — لا . . . إن هذه الحديقة . هذا السور الخشبى المحطم الذى يتأرجح تحت هواء هذه الضاحية النائية . هذه الأشجار المتدلية على السور كأنها صدر امرأة شابة تحتضن طفلا رضيعاً . هذا الهمس الذى تتبادله الأغصان خائفة وجلة رغم انقضاء عشرات السنين عليها . هذه الحشائش الخضراء النامية فى شبه فوضى متوحشة كأنها تمهد الطريق لعاشقين بدويين يجتازانها بأقدام حافية عارية . هذا كله لا يمكن أن أنساه . أنه محفور فى خيالى . إنه ممتزج بدمى . أكثر مما تتخيلين . عندما سافرت إلى الإسكندرية فى الصيف كنت أحضر بسيارتى فى مثل هذه الساعة من الليل . فأتركها كما اعتدت أن أفعل فى مكان بعيد حتى لا يلحظ أحد من الجيران وقوف سيارة غريبة أمام باب منزلك . ثم أحوم حول سور الحديقة وأقف قليلا أمام الباب نفسه . الباب الصغير الذى تجثو عليه فرووع الأشجار . وأحياناً كانت تنقضى على ساعات دون أن أمل من الوقوف والتأمل . .

هى — آه تذكرت الآن . . أن الخدم تحدثوا إلى عن

الإشاعات المريبة التى أثارها الجيران حولى أثناء غيبتى بسبب تلك الجولات الليلية التى كنت تقوم بها . .
لقد نسيت أن أحدثاك عن ذلك من قبل .
فهز رأسه فى ابتسامة ساخرة ثم سألها فى لهجة متثلجة لا روح فيها . .

هو — تذكرت الآن فقط لأننى أدرت ظهرى ورجوتك أن تقفى إلى جانبى تشاركينى النظر إلى هذا المكان الذى احتفظت له بذكريات تغذى روحى . . وإذا بك تتحدثين عن رائحة التبغ الأمريكى الذى يتصاعد من ثيابى والذى يدلك على مكانى .

هى — ماذا يدهشك فى هذا ؟

هو — أخشى أن أصارحك . . .

هى — تكلم .

هو — إننى واثق من أنك تحبيننى ثقى من أننى إلى جانبك الآن ولكنك تفعلين ذلك لأننى الآن رجل . . فى عنفوان الشباب أدخن وأعدو فى الطرقات . . . ويوحى إليك خيالك الشاب أن فى إمكانى خيانتك مع امرأة أخرى . . أما غداً . . إذا هرمت . . وتهدلت رئتى . ولم أعد قادراً على ملئهما بذلك التبغ . إذا بطؤت حركتى وارتعدت ساقاى ولم أعد قادراً على العدو فى طرقات القاهرة الحاشدة بالفتيات الجميلات . إذ ذاك

أخشى أن ينطفئ حبك . إذا لم تكن روحك كروحى تقنع بأن تكون الذكريات غذاءها الحبيب .

هى — تفكر فى أشياء غريبة . . أشياء شاذة . . إنك لم تعد الثلاثين من عمرك فلم تفكر فى ثلاثين أخرى لم تعشها بعد ؟

هو — ألم تقل لك ابنة عملك إن الشعراء مجانين ؟ إن حديثك عن التبغ الذى تتصاعد رائحته من جسمى قد أرجفنى . إن غريزتك كامرأة هى التى هبطت بك إلى حيث تفضلين ذلك على هذا العطر الملائكى الذى يتصاعد من حديقة ذكرياتنا . . هل تعرفين فيم كنت أفكر وأنت خلفى منذ برهة ؟

هى — لا .

هو — كنت أتخيلنى مستلقياً على نظراتك التى طالما شبهتها فى شعرى بأنها وسائدى الحريرية . كنت أحس فعلا بشىء لين مريح حنون . وكنت أتوقع أن أصمت أنا وأنت . . طويلا أمام هذا السكون الرائع كأننا فى حلم . . ثم أستيقظ على قبلة طويلة تطبعينها على فمى . ولكنك أبيت إلا أن نتشاجر فذكرت إشاعات الجيران ووصفت الحديقة التى كنت أتحمس فى الإعجاب بها وصفاً جعلنى أتهيب من أن خيالى انحط إلى حد التغزل فى مقبرة مهجورة .

هى — لم تؤلمك الحقيقة ؟ كيف تريدنى أن أسكت عن أحاديث الناس عن فتاة عذراء تستقبل شاباً غريباً بمنزلها فى مثل هذه الساعة من الليل ... شاب لم يعتزم إلى اليوم أن يطلب يدها . . .

هو — أرأيت ؟

هى — ماذا ؟

هو — إن الغريزة هى التى تلقنك هذا الحديث

هى — ليكن . . . ماذا أنت فاعل ؟

هو — أنا ذاهب

هى — أتهددنى ؟

هو — لا . اطمئنى . . لست كغيرى . إن الشعراء يا سيدتى أوفياء لحبهم المفقود أكثر من وفائهم للحب المنشود . . سأذكر هذا الحب ما حييت . وما دامت هذه الحديقة لم تمسها يد التغيير . فسأمر من بعيد لأتزود من أشجارها بنظرة . لن يشعر بى الجيران . ولن تشعرى أنت بى وإذا سمعت اقتراب أحد . أنت أو غيرك ابتعدت... الوداع .

ثم أسرع الشاعر فارتدى معطفه وتقدم إلى الدرج دون أن يلتفت خلفه .

كان الاثنان يبكيان إذ ذاك . كما اعتاد العشاق أن يفعلوا فى ساعات الوداع . وكانت أغصان أشجار الحديقة تشاركهما البكاء دائماً فى خوف ووجل .

زائرة المعرض

١

« ليست هذه الرسالة ثمرة نزوة طارئة دفعتني إلى الكتابة . . إنني لا أغلو إذا صارحتك بأنني أرتجف وأنا أتحدث إليك . لأنني لا أعرف فيم أتحدث . ويحسن أن أؤكد لك بأنني ترددت ثلاثة أيام كاملة وأنا أتقدم للكتابة ثم أحجم إثر تلك الرجفة التي تنتابني كلما تبينت أنني أكتب إلى رجل غريب لا تربطني به صلة قرابة أو نسب . . لم أره إلا مرة واحدة فى معرض « الاسايست » فصافحني سريعاً ثم أدار ظهره لكي يتابع التدقيق فى اللوحات المعلقة على ذلك الحائط الرمادى والتى تمثل نوعاً من الفن المصرى الجديد .

ما أعجب هذا ؟

إننى لم أر وجهك إلا عند ما قدمنى إليك ابن عمى ، وقد شاعت إذ ذاك فى وجهك ابتسامة هادئة وأنت تنقل بصرك بين أجزاء رأسى المختلفة كأنك تمتحن لوحة فى معرض . ومددت يدك فضغطت على يدى . ودخلت إلى المعرض إذ ذاك جماعة من المتفرجين فاحتشد بهم المكان الضيق . وعندئذ أحنيت رأسك معتذراً والتفت إلى اللوحات المعلقة المتجاورة . التى

حضرت لأجلها منذ الصباح المبكر والتى كانت تنتظرك ساكنة . صامتة . رزينة .

وقفت أنا إذ ذاك أنظر إلى ظهرك . ظهرك العريض . المنبسط كأنه حاجز حديدى يحمى تلك اللوحات من النظرات المتطفلة البلهاء . . وأخذت أنت تنتقل فى هدوء من لوحة إلى أخرى دون أن تلتفت إلى الخلف .

دخلت إلى المعرض الضيق جماعات جابت أنحاءه . ثم غادرته لتحل محلها جماعات أخرى وأنت لاه عنها بالنظر إلى تفاحة ملقاة على مائدة إحدى اللوحات. وأصبع امرأة موضوع فى إهمال على حافة شرفة مطلة على حديقة هادئة جميلة فى إحدى ضواحى القاهرة . أو زبد يرغى على فم موجة عاتية مقبلة على شاطئ رأس البر من بعيد . .

وكان ابن عمى قد تركنى إذ ذاك واخذ يتحدث إلى بعض موظفى المعرض عن اللوحات التى بيعت. ودهشت أنا من إصرارك على أن تظل مديراً ظهرك للناس أجمعين . . ولى أنا أيضاً . إنك تسخر الآن وأنت تقرأ هذه الرسالة . تسخر من تلك الفتاة التى لا تربطك بها صلة والتى لا حق لها عليك . والتى — مع ذلك — تجد من نفسها الجرأة على أن تحاسبك لأنك أدرت ظهرك لها وفضلت عليها لوحة زيتية رسمت فيها « بطيخة » ضخمة شقت جوانبها وبدت أحشاؤها الحمراء وقد سالت دماً قانياً

كأنها حيوان مذبوح فى ليلة عيد تهون الذبائح فيه !. . .
لا . بل أكثر من ذلك . ما دمت قد كتبت إليك فإنى لا أخفى عنك أننى ارتعدت وغلا الدم فى عروقى عندما رأيتك تقف أمام تلك اللوحة المختفية خلف إحدى أعمدة المعرض والتى كانت تمثل امرأة تكاد تكون عارية استلقت على « أريكة عريضة » وأخذت تنفث من فمها دخان سيجارة تخضب طرفها وداست إحدى قدميها على صحيفة من الصحف وساءلت نفسى « ما الذى راقه فى المرأة العجوز التى تنفث دخان سيجارتها فى وجه الناس حتى الذين حضروا للتفرج عليها ؟ »

ولكناك مع ذلك أطلت الوقوف أمامها . تحت قدمها التى داست بها على صحيفة يبدو أنها كانت قد أتمت قراءتها ثم ألقت بها فى جرأة اسمح لى أن أقول إنها كانت وقحة . إننى أخالفك تماماً فى أن تلك المرأة تستحق عناء الوقوف تحت قدمها طوال تلك المدة .

وانتظرت أن أرى وجهك وأنت تغادر المعرض ولكن يظهر أنك خرجت أيضاً وأنت مدير ظهرك بين الزحام الهائل فلم أره .

أعود فأصارحك بأننى لا أدرى كيف أكتب إليك . هناك كثيرات غيرى يدعين أمام كل رجل أنه الأول ويؤكدن بأنه سوف يكون الأخير . . ولكننى أقسم لك بأنى لم أكتب من قبلك إلى رجل آخر. إننى أقبل مسرعة إلى الخامسة والعشرين

من عمرى . . ومع ذلك فإن قلبى لم يخفق قط. لقد كان يخيل إلى أن سطراً واحداً تكتبه فتاة إلى رجل إنما هو ميثاق يسجل عاطفتها ويحددها إلى الأبد . ففضلت أن أنتظر رجل الأبد ولكننى لم أكن أتصور قط — واسمح لى — أن أرى ذلك الرجل من ظهره . وأن يبدأ قلبى فى الخفقان على أثر مصافحة سريعة بريئة فى معرض من معارض الفنانين الشبان .

إننى سمعت باسمك قبل أن أراك . ولقد كنت أعجب على الدوام بتلك القطع الموسيقية التى كانت تعزفها لك بعض فرق « الراديو » ولقد استمعت إليك مرة وأنت تتحدث فى الراديو ذات أمسية من أمسيات الصيف الماضى عن موسيقى «مندلسون» كنت فى القاهرة وكنت أنا أقضى الصيف فى بور سعيد ولكننى أحسست وأنا أنصت إليك من نافذة غرفتى المطلة على البحر أن الدنيا كلها تنصت إليك . . بل أحسست إحساساً عميقاً أن صفحة الماء قد استحالت إلى « نوته » موسيقية يرسم عليها « مندلسون » أنغامه ويسجل أناشيده وظللت منذ ذلك اليوم أفكر فى اليوم الذى سأراك فيه . ولكن أية خيبة !

لست أدرى لم كنت أود أن يكون لقاؤنا لقاء آخر . . كنت أحلم بلقاء شعرى فى حديقة فندق من فنادق الضواحى حول مائدة من الموائد النائية المنعزلة وقد أخذ الهواء المعطر بأنغام موسيقى الفندق البعيدة يداعب أذاننا رقيقاً . حنوناً . وادعاً كأنه

يحلم معنا حلم اليقظة الجميل .

كنت أريد أن أحدثك عن أول مرة استمعت إلى قطعتك « القافلة المقنعة » تلك القطعة المدهشة التي كتبت شعرها بنفسك ولحنتها بنفسك والتي وصفت فيها فتيات القرية وهن عائدات من الترعة حاملات « الزلع » على رؤوسهن ومرتديات ثيابهن وصفاً يفيض روعة وجلالا . ولقد وقفت طويلا عند إشارتك الرقيقة إلى طريقتهن في رفع أطراف الثياب السود إلى عيونهن وإخفائها عند مرور الرجال بهن . وزادني دهشة أنك وفقت توفيقاً عجيباً في تصوير ذلك الجو من الريف المصري تصويراً موسيقياً صادقاً دقيقاً .

ولكن أحلامي القديمة تهدمت يوم لقائنا وانهارت . عندما رأيتك تدير لي ظهرك وتعنى بتعقب اللوحات المعروضة كأنني لوحة سبق أن رأيتها ومللت من طول التدقيق فيها .

إنني واثقة بأنك تقول لنفسك الآن بأنني ألف وأدور لأقول شيئاً لا أجسر على مصارحتك به . . . وأنا أعترف بذلك . أعترف بأنني أريد أن أقول شيئاً . . ماذا ؟ شيئاً يرتعد له كل جسمي . . إنني أفكر فيك منذ مدة طويلة . لم أفكر قط في رجل كما فكرت فيك . قد أكون مجنونة إذ أفكر في رجل لم أره . كل ما أعرفه عنه أنني استمعت إلى قطعة موسيقية لحنها . وإلى كلمة أذاعها ومع ذلك فهذا هو الذي

حدث معى تماماً . . ولكننى كنت استبعد أن يكون جزائى بعد طويل التفكير فيك أن تدير لى ظهرك لتلصق وجهك بقدم تلك المرأة العجوز التى تنفث دخان سيجارتها. إنك حر تفعل ما تشاء . ليس لى ولا لغيرى أن يتحكم فى عاطفتك . بل إننى أعرف عنك الكثير . إن لك ماضياً حافلا بالمغامرات مع نساء « علب الليل » وأولئك المجنونات اللاتى يخيل إليهن أن الإعجاب بالعمل الفنى معناه الإعجاب بالرجل الذى ابتكر ذلك العمل والعدو خلفه . والتعلق به والتدله فيه . كما أننى أعرف أنك لاه بفنك عن مجاراتهن ومع ذلك . . ومع ذلك فإننى أكتب إليك لا لأفعل كما يفعلن . ولكن لأقول إنه إذا خيل إليك أن إعطاء الظهر لفتاة فى محفل عام دليل على عدم اكتراثك بها فإنه فى نفس الوقت يعد « نشاذاً » فى قواعد اللياقة . خصوصاً إذا صدر من فنان شاب استطاع فى أجل قصير أن يثير إعجاب الناس بفنه الجديد » .

٢

« شىء عجيب !

لقد كتبت رسالتى السابقة إليك لأسجل فيها بضع خواطر أهاجتنى يوم رأيتك للمرة الأولى فى معرض « الأسايست » ولم أكن أتصور أنك ستعنى بتلك الرسالة إلى حد أن توحى

إليك فكرة تلك القطعة الشعرية التى نشرتها اليوم تحت عنوان « زائرة المعرض » .

لم تكتب عنى ؟

إنك لا تستطيع أن تدعى بأننى أثرت اهتمامك يوم وقع بصرك على للمرة الأولى وإلا لم أدرت ظهرك وأهملتنى كما فعلت يومئذ ؟

لقد استطعت أن أقاوم بعد أن كتبت إليك . وكنت موقنة بأننى سأوفق إلى التغلب على الرغبة التى كانت تجيش فى صدرى وتلح على فى الكتابة مرة أخرى . . وانقضت بضعة أيام على رسالتى الماضية وكدت أطمئن إلى أنه من العبث أن يكون غرامى الأول بشاب له فى كل يوم غرام جديد . . يبدأ بإدارة الظهر فى غير اكتراث . وينتهى سريعاً . . من يدرى بماذا ؟

قد يكون بهزة كتف أثر نوبة عاصفة يسيل فيها دمعى ويتهدج صوتى . وتتحطم أعصابى .

ولا يبعد أن أراك فى اليوم التالى تتأبط ذراع أخرى وتنظر إلى كأنك تنظر إلى لوحة قديمة بلى قماشها . وبهتت ألوانها . وتهدلت جوانبها . وطمست معالمها . وتاه عنك أنك سبق أن رأيتها من قبل .

كنت مطمئنة إلى أن الله يحبنى لأننى لم أتصل بك . وإلى أننى استطعت أن أبدأ فى نسيانك .

نسيان تلك اللحظة الخاطفة التى نظرت فيها إلى وأنت

تصافحني وتضغط على يدى . . ولكننى فوجئت بتلك الكلمة التى نشرتها اليوم والتى أشرت فيها إلى ما جاء برسالتى إليك .

أكاد أجن . هل تهتم بى حقيقة ؟

أيهمك — حقاً — أن أفهم أنلك تفكر فى . . ؟

إننى وقفت أمام عنوان تلك الكلمة ذاهلة . وزاد ذهولى عندما وجدتك تتحدث عن أشياء خطرت لى فعلا عندما رأيتك للمرة الأولى فى معرض « الأسايست » ولكن . .

هل يمكن أن تكون حقاً قد فكرت فى ذلك التفكير الطويل الذى أوحى إليك فى النهاية بأن تجلس إلى مكتبك وأن تكتب تلك القطعة الشعرية التى قرأتها اليوم ؟

إننى لا أخفى عنك أننى سعيدة غاية السعادة لأنك فكرت فى وكتبت عنى . . إننى بتعبير أدق فخورة . . مزهوة .

ولكننى أعود فأسألك . لم كنت قاسياً معى فى المرة الأولى إلى حد أنلك نفرتنى منك أو كدت ؟ »

٣

« أكتب إليك فى الظلام تقريباً . وأغمض عينى بين كل برهة وأخرى لأتخيلك إلى جانبى كما كنا اليوم فى طريق الفيوم . . أتذكر ؟ عندما هبطت من سيارتك قبلى ودرت حولها فى رشاقة رائعة ثم فتحت لى الباب وأنت تنحنى ومددت يدك

لتعينني على الهبوط دون أن ترفع بصرك إلى وجهي كأنني ملكة وكأنك خجل من النظر إلى . فلما ارتبكت أثناء هبوطي من السيارة أسرعت فطوقتني بذراعيك ؟

كانت رائحة الدخان تفوح . إذ ذاك — من ثيابك كلها . وكنت أحس بجسمي النحيف وقامتي الهيفاء إلى جانب قامتك الجبارة كأنني أحتمي بك من عاصفة رملية على وشك أن تجتاح صحراء الفيوم .

وأخذت أفتح أنفي لأملأه من رائحة الدخان حتى ثملت . . فألقيت رأسي على صدرك وأغمضت عيني ثم استرسلت في حلم رائع من أحلام اليقظة .

إنني لا أعرف إلى الآن كيف فعلت ذلك . ولكنني لست نادمة بل إن كل ما أتمناه أن أغمض عيني لأستعيد ذكرى تلك اللحظات التي عشتها إلى جانبك ورأسي على صدرك ورائحة الدخان تملأ أنفي وصدري . وصفير ريح الصحراء المترامية تحت أقدامنا يدوي في آذاننا كأنها موسيقى سخرت لتشجي غرامنا .

أترى ؟ أنني أتحدث عن « غرامنا » نحن الاثنين فهل تحبني أنت كما أحبك ؟ أقسم لك أنني لا أريد ذلك . يكفيني أن أحبك أنا . لقد أحببتك وأنت تدير لي ظهرك وتقف تحت قدمي امرأة أخرى هرمة . يسيل « أحمر » كثيف من

شفتيها تنفث دخانها فى وجهك فكيف لا أحبك الآن وقد عشت معك . تلك اللحظات التى أشعرتنى للمرة الأولى بسعادة الوجود إلى جانب رجل معشوق .

إننى سعيدة . أجل سعيدة لأنى أحبك ولا يعنينى بعد ذلك شىء . . أنك لم تعرفنى كما يفعل غيرك من الشبان . لم تسع إلى معرفتى لم توسط صديقة لى فى أن تقدمنى إليك فحددت لك موعداً على « البلاج » أو أثناء الاستراحة بإحدى دور السينما . وقضيت عصر اليوم المحدد أمام المرآة تصلح من ثيابك . وتضع قدراً من « البريانتين » فى شعرك وتضغط بالسلاح على ذقنك لتقتل منابت الشعر فيها وبالفرشاة على أسنانك لتزيدها لمعاناً وبياضاً . ولم تمسك بسماعة التليفون لتبدأ فى اضطراب متكلف بالاعتذار لأنك أخطأت فى طلب الرقم ثم تعيد الحديث فتصارحنى بأنك رأيتنى ذات ليلة أغمر جو إحدى دور السينما بفتنتى وبأنك اضطربت منذ وقع بصرك على واعتزمت أن تكون لى فإذا انتهرتك عدت إلى التحدث مرة ثالثة ورابعة وعاشرة حتى أمل من قذف السماعة فى وجهك فأضحك مرغمة وتصارحنى أنت بأنك تحبنى وأن حبك سيزداد كلما زدت أنا إعراضاً عنك . ولم تقف بسيارتك عند أول الطريق الذى يقع فيه منزلى لكى تتبعنى بها كلما خرجت فإذا ركبت سيارتى أخذت تدور حولها وتضغط على « الكلاكسون »

حتى تحفظ أذنى صوته فلا ألبث أن أتنبه إذا مررت أمام باب المنزل مرات أخرى مرسلا ذلك الصوت فى الهواء لكى أفهم أنك تفكر فى . وتقنع بالمرور من أمام بابى ولو لم يقع بصرك على . لم تفعل شيئاً من ذلك قط بل لم تكن تعرفنى يوم قدمنى ابن عمى إليك . ولم يكن يخطر ببالك أننى أفكر فيك قبل ذلك ببضعة أشهر وأتمنى رؤيتك . وأحلم باليوم الذى ألتقى بك فيه .

أقولها مرة أخرى دون أن أحس بأن فى ذلك إهداراً لكرامتى لقد سعيت أنا إليك ولم أذهب يومئذ إلى معرض « الأسايست » إلا لأننى علمت أنك على موعد مع ابن عمى هناك .

إننى أعرف أن المرأة إذا صارحت رجلها بمثل هذه الاعترافات تغذى غروره وتوقد كبرياءه وتلهب أنفته واعتزازه بنفسه . .

ليكن . . إننى أحبك . . أحبك . . أحبك وأفعل بعد ذلك ما شئت »

٤

« أكتب إليك بعد أن خرجت ابنة عمى من عندى . إننى أضحك الآن من كل قلبى كلما تذكرت « النصائح » التى ألقتها على أذنى . فى لهجة رهيبة .

لقد رأتنى أتأهب للكتابة إليك فلما سألتنى صارحتها بأننى أكتب إليك .

ـ تكتبين رسائل لرجل بخط يدك ؟ أجننت !

فسألتها متظاهرة بالبلاهة :

ـ ماذا فى الكتابة إلى رجل ؟

ـ ألا تفكرين فى مستقبلك؟هل خلق الرجل الذى يمكن الاطمئنان إليه ؟لو اختلفتما وانقطعت هذه العلاقة ماذا تفعلين؟رسائل بخط يدك عندرجل غريب ! أين ذهب عقلك؟

ـ ماذا يمكن أن يفعل بهذه الرسائل ؟

ـ من يدرى ؟ إن الرجال يتغيرون فجأة ولا يجب أن نستكثر عليهم أمراً . ألا يجوز أن يطلع أصدقاءه عليها تفاخراً وزهواً ثم يتناقل بعض هؤلاء الأصدقاء أنباء هذه الرسائل ؟ ألا يحتمل أن تترامى بعض الأنباء إلى رجل قد يفكر فى طلب يدك ؟

أترى ؟

أن ابنة عمى التى تزوجت منذ عشرة أعوام وهى لم تعد الخامسة عشر من عمرها والتى رزقت من زوجها بخمسة أطفال . ـ وهى تكاد تضاهينى سناً ـ تجدمن حقها أن تلقى على تلك الخطبة الناصحة الزاجرة الثائرة .

إنك تستغل رسائلى إليك ذلك الاستغلال الشائن النذل ! من يدرى؟ ربما حفرت لبعض تلك الرسائل «كليشهات» ونشرتها فى الصحف التى تراسلها لكى يطلع عليها عشرات الآلاف منسوبة إلى؟

كم هى مجنونة ابنة عمى !

إنها لا تعرفك . . لا تعرف أنك أنبل رجال العالم أجمع . إنك النبع الذى يروى رجولة العالم العطشى .

إنها تظنك رجلا عادياً كغيرك .

لو علمت من أنت !

آه . نسيت أن أسألك . أين كنت أمس من الساعة الخامسة مساء إلى العاشرة ؟ لقد حاولت الاتصال بك تليفونياً حوالى العشرين مرة فلم أجدك . حتى تصاعد الدم إلى رأسى وكدت أجن . هل تعرف لم كنت أريد أن أتحدث إليك ؟

لقد أقبل لزيارتنا فى المنزل ابن عمى ومعه بعض أصدقائه ومن بينهم ذلك المحامى الذى عرفت منك مرة أنه كان زميلا لك فى الدراسة . فلم أود أن أهبط إلى غرفة الضيوف لمقابلتهم قبل أن . . أن أستأذنك . ولكنك لم تكن موجوداً . كما قلت لك . لا تستطيع أن تتخيل كم ضايقنى أن أضطر إلى مقابلة أولئك الرجال والجلوس معهم دون أن تسمح لى أنت بذلك .

لقد شعرت كأننى مقدمة على خيانة قذرة . وأنا أمد يدى لأصافحهم دون أن يكون لديك علم بذلك .

إننى أريد أن أكون لك . لك أنت وحدك . وأن أظل هنا لكى تأمرنى فأطيع يا حبيبى » .

٥

« لا تظن أننى أريد أن أحاسبك ولكننى فقط أرجو أن تكون صريحاً معى هذه المرة فتزيل الشك الهائل الذى لا أخفى عنك أننى تعذبت بسببه ليلة كاملة حتى الصباح لم أوفق فى أثنائها إلى النوم لحظة واحدة .

هل تعرف لماذا ؟

لقد أخبرنى ابن عمى أمس مساء أنه رآك مع سيدة أسبانية تقوم بتدريس لغتها فى إحدى مدارس اللغات الحية وقد قدمتها إليه على أنها صديقتك وأخبرته أنك ستتناول العشاء معها .

من هى هذه المرأة ؟

مرة أخرى ، إننى لا أريد أن أحاسبك لأننى سبق أن صارحتك بأننى لا يعنينى فى الحياة إلا أن أحبك . ولا أهتم بعد ذلك إذا كنت تبادلنى أنت هذا الحب أو تقف مكتوف اليدين . مرفوع الرأس . باسم الثغر . مفتوح العينين . رزين القسمات تنسدل أهدابك فى هدوء وتثاقل أمام فتاة تحبك ويرتجف جسدها كلما تحدثت إليك عن هذا الحب . ولكننى تبينت بعد ما أخبرنى ابن عمى بأنه صادفك مع تلك المرأة الأسبانية بأننى إذا كنت لا أريد منك أن تبادلنى حبى بمثله فإننى لا أستطيع أن أقوى على احتمال رؤيتك تهب ذلك الحب إلى امرأة أخرى .

هل تحب تلك المرأة حقاً ؟

أذكر الآن أنني قرأت لك أخيراً قطعة شعرية عنوانها « قصور فى أسبانيا » فهل هى التى أوحت إليك بفكرتها ؟ وإذا كانت علاقتك بريئة فلم لا تصارحنى بأنك تخرج معها وتبدو إلى جانبها أمام الناس أجمعين ؟

إننى لا أطلب منك أن تكون مثلى . أن تستأذننى كلما دفعتك الظروف إلى الحد الذى تعد فيه — كما أعد — مد اليد لمصافحة امرأة خيانة لا تغتفر . لا أطلب ذلك ولكننى أريد أن أعرف مصيرى وأنا أسمع هذه الأخبار تترامى إلى بأنك تبدو فى كل ليلة مع امرأة جديدة فى محفل عام . إن هذا أقل ما يمكن أن تطلبه فتاة مثلى أوقفت حياتها على حب رجل » .

٦

« ألا تريد أن تجيب ؟

كنت أتوقع أن تقف منى هذا الموقف . بل إننى واثقة بأنك تسخر منى الآن ومن ثورتى وأنت تتصفح رسائلى السابقة إليك . الرسائل التى كانت تتحدث عن يقينى بأن هناك كثيرات غيرى يتعقبنك وهن مؤمنات بفكرة الإعجاب بك كرجل قبل الإعجاب بك كفنان . أنك تقول لنفسك الآن « كيف تحاسبنى هذه المجنونة على خروجى مع امرأة أخرى

وقد بدأت علاقتها معى وهى تعلم بأن هناك عشرات أخريات ؟ »
أجل أعترف بذلك . أعترف بأننى حاولت فى بادئ الأمر أن أنسى أننى عرفتك كما عرفك غيرى — وأننى معرضة فى كل لحظة لكى أتنحى عن مكانى فى قلبك لتحل فيه فتاة أخرى بدأت بأدارة ظهرك لها فبدأت هى بإعطائك قلبها . ولكنك — وهنا مجال للهزء والسخرية — كنت طيباً معى فخيل إلى أنك أحببتنى دون الأخريات . وتغير موقفى منك فكرهت أن أحدث رجلا آخر أو أن أصافح رجلا آخر أو أن أجلس مع رجل آخر وكان طبيعياً أن أنتظر منك موقفاً مشابهاً ولكنك غدرت بى ذلك الغدر » .

٧

« ماذا تريد أن تفعل بى ؟

لقد اعتزمت أن أكتب إليك شيئاً قد يؤلمنى ويشق على نفسى ولو علمت أنه يؤلمك انت الآخر لما فعلت ولكننى واثقة من أنك ستنشرح لقراءة هذه الكلمة .

يجب أن أخبرك بأننى لا أستطيع أن أستمر على علاقتى بك . لقد انقضى نحو شهرين على تعارفنا ومن العبث أن تدعى بأن تلك العلاقة قد أصابت قدراً من النجاح فقد شقى كلانا بها . شقيت أنا لأننى لم أشعر فى يوم بأنك لى وحدى . وشقيت أنت لأننى كنت ألاحقك برسائلى التى تلتهب غيرة وبمحادثاتى

التليفونية المتكررة أثناء الليل والنهار التى كنت فى كل منها أثور وأصخب كلما خيل إلى بأنك تخوننى مع امرأة أخرى . ووصل ضيقى إلى أقصاه عندما صحت فى وجهى اليوم وأنا أتحدث إليك بأننى ما كان يجب أن أثور عندما عرفت أخبار سهراتك ما دمت أقابل رجالا آخرين فى منزلى وفى الخارج وأنك تستطيع أن تشك فى وفائى أنت الآخر .

يخيل إلى أنه كان حلماً . حقاً لم أكن أتوقع بعد كل التضحيات التى أقدمت عليها لأجلك أن يقبل اليوم الذى تجرؤ فيه على القول بأننى لست وفية .

سامحك الله .

كل ما أرجوه أن يأتى اليوم الذى تقابل فيه المرأة التى سوف تحبك كما تستحق أن تحب .

وأخيراً آمل أن نفترق صديقين ولا تجعل لى فى نفسك ضغينة أو حقداً » .

٨

« قضيت وقتاً هادئاً هانئاً بعد أن تركتك فى منتصف الليلة الماضية رغم الآلام التى كانت تحز فى نفسى منذ كتبت إليك رسالتى الماضية .

أوه . إنك لا تستطيع أن تتخيل وقع كلماتك على قلبى .

كلماتك الطيبة الحنون وأنت تقول لى بصوتك المرتجف« كيف أغضب منك وأنت لى كل شىء » ؟ لقد نسيت إذ ذاك توآً كل ما حدث بيننا وشعرت وأنت تغمرنى بحنانك بأننى أسعد فتيات العالم .

إن حبى يزداد قوة وعتواً . إننى مؤمنة بأنه ما من رجل آخر فى العالم يمكن أن يضاهيك وأنه لن يكون لى غيرك رجل آخر مرة أخرى .

لقد نسيت الماضى . احتفظ برسائلى عندك . وثق أننى لا أنظر الآن إلا إلى المستقبل السعيد الذى ينتظرنا نحن الاثنين .

والآن سؤال صغير .

هل تحبنى حقاً ذلك الحب العميق الوفى الذى أشعر به أنا نحوك ؟

لا أظن »

شريرة

١

ـ ألم تسمع من قبل كلباً يضحك ؟

هكذا فاجأنى صديقى القديم الذى زاملنى مدة عامين فى الدراسة الثانوية كان أثناءهما رئيساً للفرقة التمثيلية التى كانت تقوم بإخراج بعض درامات لشكسبير مترجمة بأقلام نفر من الكتاب السوريين المعروفين . وكان « هو » ـ بطبيعة الحال ـ يقوم بدور البطل فيها كما كان معروفاً بين زملائنا طلبة مدرسة الزقازيق الثانوية بأنه أكثرنا توفيقاً فى كتابة مواضيع الإنشاء وأن درجة ٩ من ١٠ ظلت وقفاً عليه دون غيره وهى أعلى الدرجات التى كانت تعطى للطلبة تطبيقاً لنظرية مدرس اللغة العربية التى كانت تقضى ـ ولا أدرى السر إلى اليوم فيها ـ بأن درجة ١٠ من ١٠ لا يمكن إعطاؤها إلا له ـ أى للمدرس ـ شخصياً إذا تنازل وكتب موضوعاً من موضوعات الإنشاء !

وقد انقطعت أخباره عنى مدة طويلة . ولكننى كنت أطالع له فى بعض المجلات أبحاثاً مختلفة عن موضوعات مسرحية . كما أننى قرأت مرة أنه تقدم إلى إحدى الفرق بمسرحية مصرية وضعها ولكنها لم تقبل . وعادت أخباره مرة أخرى

فانقطعت عنى إلى أن ظهر اسمه بين الفائزين فى إحدى مباريات التأليف المسرحى التى دعت إليها وزارة المعارف العمومية ثم عاد فظهر على رأس طائفة من المسرحيات الناجحة التى مثلت فى الأعوام الأخيرة . ودهشت فى أول الأمر عندما فاجأنى بالسؤال الغريب الذى صدرت به هذه القصة وخيل إلى بعد قليل أنها فكرة مسرحية جالت بخيال المؤلف الشاب ولكنه عاد يكرر سؤاله .

ـ إذن فلم يسبق لك أن سمعت كلباً يضحك دون أن تعرف ما إذا كان يضحك لك أو يضحك عليك ؟

ـ كيف ؟ ـ فقال لى فى لهجة جادة .

ـ كما أقول لك . تعال معى الآن إلى المطرية لأريه لك . إنك تعرف ولا شك ذلك الفندق الصغير الذى فى آخر خط المطرية . الكلب هناك . يقف أمام ذلك ذلك الفندق . إذا جئت معى الآن سينظر إليك ثم يضحك . سيذهلك . بل سيفقدك الرشد. ستشعر كما شعرت أنا برغبة فى أن تنقض عليه وتخنقه . .

واستطعت أن أتغلب على دهشتى حتى انتهيت من سماع هذه التفصيلات الغريبة التى ظل زميلى القديم يسردها على عن غرامه . وزواجه . والذكريات التى تعود إلى ثمانية أعوام مضت. وهى موضوع القصة . . .

٢

عند آخر خط سكة حديد المطرية يقوم فندق من الفنادق الريفية المتواضعة أراد صاحبه أن يسخر فأطلق عليه اسم « أوتيل ريش » وهذا الفندق يختلف عن أمثاله فى أنه يدقق كثيراً فى إيواء اللاجئين إليه من ركاب السيارات المنطلقة فى ساعات النهار والليل تحمل كل منها رجلا وامرأة . بل لقد عرف شباب العشاق أن اليونانى العجوز صاحبه لا تنطلى عليه حيلة التقدم إلى باب الفندق وقد حمل الشاب حقيبة من حقائب السفر بيد وتأبط ذراع فتاته باليد الأخرى محاولا تسجيل اسميهما فى الدفتر كأنهما زوجان إذ امتاز الفندق – بعد تجارب السنين الطويلة – بفراسة تمكنه من اختراق حجب الحقائب الجلدية وتبين ما إذا كانت خالية أو محشوة – حقيقة – بالملابس الضرورية لزوجين على سفر !

وكان « هو » الطالب بكلية الآداب يقطن مع أسرته المكونة من أبيه وكيل مكتب بريد المطرية منزلا متواضعاً بعين شمس استطاع الأب أن يقتنى ثمن أرضه من مرتبه الضئيل وبعد أن دفع أقساط الأرض تجرأ فبنى فوقه طابقاً واحداً مكوناً من ثلاث غرف كانت إحداها مخصصة لابنه.

فى تلك الغرفة المطلة من جهة على صحراء عين شمس ومن

الجهة الأخرى على حقول المطرية كان يجلس « هو » يذاكر دروس السنة النهائية من كلية الآداب ويحلم بالمستقبل الذى طالما منى نفسه بالوصول إليه . مستقبل المؤلف الذى يوفق عن طريق فنه إلى إثارة إعجاب النظارة والفوز بتصفيقهم الحاد والذى يصعد أثناء فترات الاستراحة بين الفصول إلى «الكواليس» ليوزع تهانيه على ممثلى مسرحيته . . ويمنح ابتساماته لممثلاتها . ثم يقف عند باب المسرح الخارجى بعد انتهاء عرض القصة ليتلقى تهانى من يعرفهم ومن لا يعرفهم من أفراد الجمهور المعجب.

ولقد ظل « هو » طيلة المدة التى قضاها فى عين شمس خاضعاً لنوع من النظام الصارم فى حياته اليومية المتكررة فقد كان يغادر منزله فى ساعة مبكرة من الصباح إلى محطة السكة الحديدية ليهبط إلى القاهرة ولا يعود إلا مساء بعد انتهاء موعد الكلية ليعيد مذاكرة دروسه ويريح أعصابه بتصفح بعض مسرحيات فرنسية أو إنجليزية حتى يتعب فينام . . لم تصادفه حادثة هزت حياته هزة قوية أخرجتها عن ذلك التواتر الممل الذى ضاقت به روحه الشابة . أو بتعبير أدق لم تصادفه المرأة التى تستطيع أن تشغل تفكيره كما تشغله مسرحية ناجحة لبرنشتين أو ميريه أو جالسورثى .

إلى أن رآها . . .

كان ذلك فى مساء يوم من أيام الصيف . وكان « هو »

قد ذهب مع رهط من زملائه فى الكلية إلى إحدى « صالات » الغناء والرقص التى اعتادت العمل فى الصيف كل عام بساحل روض الفرج . ولكنه لم يكد يشاهد جزءاً بسيطاً من البرنامج المعروض حتى اشمأزت نفسه من الراقصة التى كانت تلقى أغنية سيد درويش الخالدة « على قد الليل ما يطول » فأساءت فهمها وشوهتها . كما اشمأز من الجمهور الذى لم يفهم شيئاً من فن الموسيقى الراحل بل أخذ يطوح بطرابيشه عالياً بينما كانت الراقصة تكرر كلمات الأغنية فى حركات مكشوفة سمجة . فاعتذر إلى أصدقائه واستقل أول قطار عاد به إلى عين شمس وغادر القطار ثم سار متباطئاً إلى منزله .

كان الطريق هادئاً لا أحد فيه . . .

وكانت منازل عين شمس إذ ذاك قد بدأت تغلق نوافذها رغم حرارة الجو هرباً من رطوبة الصحراء أثناء الليل . . وأخذت أنوارها تخفت حتى ساد الظلام . .

وأخذ « هو » يفكر فى تلك الليلة الكريهة التى أراد أصدقاؤه أن يقضيها معهم إلى جانب ذلك الجمهور المخمور . ودهش من استطاعتهم البقاء فى ذلك الجو الممتلىء بصياح السكارى ورائحة « الجنبرى » المتعفن الذى اعتادت الحانات الرخيصة أن تقدمه مع أكواب الخمر . وفجأة لمح من بعيد ضوءاً قادماً فى سرعة هائلة . . كان ضوء سيارة مقبلة من

المطرية . متجهة إلى المرج ودهش عثمان لأن السيارة كانت تسير مسرعة وسط الرمال فى غير الطريق المعد لسير السيارات ووقف مستعداً أن يرشد قائدها إلى الطريق إذا اقترب منه ولم يطل تفكيره لأن ما توقعه حدث تماماً فقد ترنحت السيارة والتوت التواء عنيفاً أثناء سيرها ثم وقفت فجأة وقد تعذر عليها الانطلاق فوق الرمل . . وأحس « هو » بأن سائق السيارة لن يستطيع أن يتحرك من مكانه فى صحراء عين شمس بعد أن غاصت عجلاتها فى الرمال الرخوة فتقدم إليه مسرعاً . . ولم يكد يقترب من السيارة حتى دهش فقد رأى أمامه فتاة فى نحو العشرين من عمرها نحيفة . طويلة القامة . ترتدى ثوباً رياضياً أبيض مبتور الأطراف وقد تأرجح على عنقها « وشاح » بنى اللون. وكانت الفتاة قد أخذت تجاهد عبثاً لرفع عجلات السيارة من الرمل الذى غاصت فيه . . وكان الضوء المنارى الكبير يسطع إذ ذاك على مسافة بعيدة أمام السيارة . فلما يئست «هى» من زحزحة العجلات عن مكانها وقفت إلى جانب السيارة واعتمدت على إحدى العجلتين الأماميتين وقد أخذ هواء الليل يعبث بالوشاح الحريرى الملتف حول عنقها ويحرك شعرها فى حركات عنيفة ثائرة . ويزأر زئيراً مخيفاً كأنه يسخر من اجترائها على انتهاك حرمة ذلك الطريق الذى لم يخضع من قبل لسيارة أخرى . وخيل إليه من بعيد وهو يدنو إليها بأنه

مقبل على لوحة فنية من تلك اللوحات التى تتفنن معامل السيارات فى رسمها . وتستخدم لها أجمل الوجوه . وأرشق القامات توقفها إلى جانب السيارة وتلتقط صورتها فى وضع فاتن لتغرى وتثير .

وجفلت « هى » عندما رأت شبحاً يتقدم إليها فى الظلام فصاحت فى صوت لم يخل من اضطراب :

— من أنت ؟

فأجابها توآ :

— لا تخافى . لقد لمحتك من بعيد فعرفت أنك أخطأت وخرجت عن الطريق الزراعى . . إلى أين كنت تقصدين يا آنسة ؟

— المطرية .

وكان « هو » قد وصل إليها فابتسم وقال لها :

— لقد تجاوزت المطرية. إنك الآن فى عين شمس. وبعد قليل ستكونين فى المرج .

وبان الذعر على وجه الفتاة . وأخذت تجيل بصرها بين الشاب الذى أمامها وأثار العجلات المختلفة فى الرمل الرخو. وأنوار المطرية التى كانت تبدو من بعيد . . — وتمتمت . .

— إذن فقد تهت ؟

— ليس فى هذا ما يدعو إلى الذعر . أستطيع أن أستدعى من يساعدنا فى رفع العجل . . . الأمر أبسط

بكثير مما تتوهمين . بعد بضع دقائق ستكونين فى المطرية .

ــ إنما يجب أن أذهب إلى بيت عمتى فى القاهرة لأبدل ثيابى ــ فنظر « هو » إلى ثوبها ثم ابتسم وهو يقول :

ــ ولكنك رشيقة فى هذا الثوب

فهزت رأسها فى ملل وقالت :

ــ ليس هذا وقت السخرية . إننى مدعوة لحضور حفلة زفاف فى هذه الليلة . وقد أرسلونى لأحضر إحدى قريباتى . تقطن هنا . فى المطرية وأعود بها إلى القاهرة . ماذا أفعل الآن وقد تأخرت جداً . . كم الساعة الآن ؟

ــ إنها أقل من الثامنة . . استريحى داخل العربة إلى أن أستدعى اثنين من خدم مكتب البريد .

ولما عاد لم يجدها داخل السيارة كما كان يتوقع بل وجدها قد أخرجت وسادة السيارة وألقت بها على الرمل ثم استلقت عليها . .

كان قد عاد برجل واحد أعانه فى رفع عجلات السيارة ودفعها إلى الطريق الزراعى الذى كان يجب أن تسلكه . . واشتركت الفتاة معهما فى ذلك حتى وفقوا . . بعد أن نال التعب منهم . . .

وابتعد الرجل الذى استعان به وخلت صحراء عين شمس فى تلك الساعة من الليل إلا منهما « هو » . . و « هى » وتقدما

فى خطوات بطيئة إلى حيث تركت وسادة سيارتها . . ولم تكد تنقضى بضع دقائق حتى كان قد عرف اسمها . وعرف أنها ابنة أحد كبار أعيان الإسكندرية وعرف أنها شقيقة زميل قديم له فى الدراسة الابتدائية وكانت للزميل سيارة هو الآخر كما لشقيقته! وكان معروفاً بين زملائه بأن والده من أثرى سراة الإسكندرية وأحست هى بأنها اهتدت إلى روح يمكن أن تصادقها وتطمئن إليها . . . روح بحثت عنها عبثاً فى الصالونات التى ترددت عليها بين الإسكندرية والقاهرة . والمجتمعات التى غشيتها مع والدها أو شقيقها أو زوج شقيقتها . لقد وجدت تلك الروح فى تلك الساعة من الليل وسط صحراء عين شمس الساكنة . وتعمدت ألا تطلب إليه أن يخبرها عن الوقت . . بل تعمدت أن تدير وجهها بحيث لا تواجه أنوار المطرية فلاتعود تذكر السبب الذى قدمت من أجله إلى تلك الضاحية النائية من ضواحى القاهرة . وطغت عليها الرغبة فى أن تفضى بكل شىء إلى الشاب الذى جلس تحت قدميها ككلب من الكلاب الذئبيه الجميلة يحرسها ويحميها . لم يعد يخيفها صفير هواء الصحراء ولم يعد يثير ذعرها أن تعوى الوحوش إلى جانبها ما دام «هو» إلى جانبها . شىء واحد اضطرب له كيانها كله . . إحساسها بأنها لن تستطيع أن تترك ذلك الشاب الذى ألقت به فى طريقها صدفة ساحرة ذات ليلة من الليالى المظلمة التى لا يضىء سماءها قمر .

وطغى عليها ذلك الإحساس إلى حد أنها اعتدلت فى جلستها واقتربت بجذعها الأعلى منه ثم مدت يدها وتناولت يده وهى تقول له فى لهجة مضطربة وجله :

ــ من أنت ؟

فدهش وسألها :

ــ لم هذا السؤال المفاجىء ؟

ــ لست أدرى ماذا دهانى منذ رأيتك . ابتعد عنى .

ــ هل ضايقتك فى شىء ؟

وعادت تجيل بصرها حولها . وتذكرت أنها لم تكن قد رأت ذلك الشاب قبل ذلك بساعة وأنها لم تعد تطيق أن تفترق عنه فصاحت به وهى تتشبث بثيابه :

ــ أجل إننى أشعر بضيق شديد . ضيق يكاد يخنق أنفاسى . لم أكن أريد أن أراك . . ماذا حدث لى ؟ أكاد أنكر نفسى . . من ساعة واحدة كنت أقود سيارتى وأنا أغنى . . وأصفر . كأننى أسعد فتاة على الأرض وفوق الأرض .

ــ وماذا حدث بعد ذلك ؟

ــ لا أدرى . إننى لا أود أن أعود إلى السيارة مرة ثانية . لا أود أن أعود إلى القاهرة . . . ولا الإسكندرية . لا أود أن أرى الناس الذين تعودت على أن أراهم .

أهلى وصديقاتى أكاد أحس بأننى كرهتهم جميعاً .

ـ ماذا تودين ؟

ـ أن أبقى هنا . . . لا . . . أفضل أن أتوه فى هذه الصحراء القريبة التى يلفح هواؤها الساخن وجهينا مقبلا من بعيد وأن يستمر تيهى يومين . . ثلاثة أيام . . عشرة. إلى أن أجوع وأظمأ وتتمزق ثيابى وتتهدل . وأسقط على الأرض إعياء . . .

ومد « هو » يده فأمسك يدها . وشخص إلى عينيها اللتين بدأتا تلمعان ببريق مخيف وتمتم فى شبه حشرجة :

ـ ثم ماذا ؟

ـ ثم تقبل أنت . . وتعثر بى . فتخلع ثوبك لتعطيه لى وتحملنى لتعيدنى إلى العالم .

وأحس بأصابعها تتقلص على كتفه . وبصدرها يرتفع ويهبط فى تهدجات سريعة ثائرة . ورأى شفتيها ترتعشان . وأهدابها تهتز وقد تبللت أطرافها بالدموع . وفجأة ألقت برأسها على صدره وهى تصيح فى صوت باك :

ـ لا تتركنى . أنا لا أريد أن أتزوج . لا أحبه . أتوسل إليك ألا تتركنى له أو لغيره .

وذهل لتلك الحالة الشاذة التى كانت عليها . . . ولكنه تظاهر بالهدوء لكيلا يؤلمها . وأخذت تفضى إليه بباقى ما كان

يجيش فى صدرها . أفضت إليه بأن أسرتها وافقت على تزويجها من التاسعة وأحد الأطباء المعروفين فى دمنهور . . يبلغ الأربعين من العمر وأن ذلك الطبيب مدعو إلى حفلة الزواج التى أقبلت من الإسكندرية خصيصاً لحضورها وأن مربيتها العجوز أسرت إليها قبل أن تغادر بيت أبيها فى محرم بك بأن الغرض من حضورها الحفلة أن يراها « العريس » من بعيد . وفكر « هو » فى كل ما قالته له واشتد ذهوله عندما تذكر أنه لم يرها إلا فى تلك الليلة ومع ذلك فإنه — هو الآخر — لم يعد يطيق أن يفترق عنها . ولكنه ارتجف إذ تخيل ما اعتزمت « هى » أن تقدم عليه من عدم إطاعة أسرتها فى قبول الزواج من الطبيب الذى تقدم لطلب يدها . ماذا يمكن أن يحدث بعد ذلك؟

لقد طلبت إليه بصراحة ألا يتركها تعود إلى أسرتها . فهل يستطيع أن يعولها ؟ هل يستطيع أن يتزوجها ؟

يتزوجها . . . .

إنه لم يفكر قط فى الزواج من قبل . . كان لا يزال طالباً بكلية الآداب تنفق عليه الدولة لأن مرتب والده الضئيل لا يكفى لتعليمه تعليماً عالياً . . بل إنه لو خطرت له فكرة الزواج فلم يكن ممكناً أن تخطر له فكرة العثور على الزوجة وتقرير الزواج منها فى ليلة واحدة . كيف يمكن أن يتم مثل ذلك الزواج الغريب ؟

ولكنها عادت تقول له فى صوت باك :

– لا يمكن أن أعود إلى بيت أبى . لقد كنت أعتزم أن أحضر « الفرح » كما تريد أسرتى ثم أركب سيارتى وأهرب إلى حيث لا أدرى . . أن جميع أفراد أسرتى يعرفون أننى مجنونة ومع ذلك حاولوا خديعة أنفسهم وقبلوا هذا الرجل زوجاً لى دون أن يؤبه لرأيى ويبدو لى أن «مربيتى » قد تبينت أنى اعتزمت أمراً عندما استدعونى من « العزبة » لحضور حفلة إعلان الخطبة فالتمست أكثر من عذر لتأخير السفر إلى القاهرة . وأخيراً جمعت كل ما لدى من مصاغ وماس ووضعته فى حقيبة لأنها قالت لى وهى تهمس فى أذنى «إن أباك عجوز يا ابنتى وأقل صدمة قد تجهز عليه . فكرى فى هذا . فكرى فيه طول الوقت » ولكننى لم أجب عليها . فانحدرت دمعة كبيرة من عينيها كأنها فهمت أننى لم أعد أحتمل المناقشة فيما اعتزمته – وسكتت قليلا ثم هزت رأسها فى بطء وهى تشير إلى السيارة واستمرت قائلة وقد ارتسمت على محياها ابتسامة أليمة :

– إن كل ما أملك أودعته هذه السيارة المعطلة . لم أشأ أن أترك المصاغ فى بيت عمتى خشية أن يحتجزوه لمنعى من الهرب . إن ثمنه يكفينى العمر كله . لن أكون فى

حاجة إلى أحد . إننى متوقعة ما سوف يحدث .
سيثور أبى . وسيحرمنى من الإرث ببيع كل أرضه
إلى أخى . ليفعل ما يشاء . اقسم لك أننى سأكون سعيدة
لو عرفت أن هذا الإجراء الذى سيحرمنى من نصيبى
سيهدئ ثورة أعصابه . إن أبى طيب القلب . حتى عند
تقرير حرمانى من ثروة يتهافت الناس جميعاً على ريعها .

وفجأة تبين « هو » أن الفتاة التى كانت راقدة إلى جانبه
قد اعتزمت تضحية كل شىء فى سبيل أن تحقق مغامرة
جنونية . وأنه منقاد إلى مجاراتها . كان يشعر بلذة خفية فى أن
يعيش بطلا من أبطال مسرحية غرامية عنيفة .

واتفقا على اللقاء فى اليوم التالى .

٣

فى ذلك اللقاء ذهب الاثنان إلى مأذون المطرية فعقد
زواجهما . وكان « هو » قد فكر فى المكان الذى يستطيع أن
يعيش فيه معها حتى لا يعلم والده بخبر زواجه وحتى يتبين
موقف والده من ذلك الزواج . فاهتدى إلى الفندق الريفى
المتواضع الذى يديره اليونانى العجوز فى خارج المطرية وقد
ذهبا إليه وقضيا فيه الليل .

وفى الصباح المبكر استيقظ « هو » وألقى نظرة عليها . على

زوجته التى كانت لا تزال تغط فى نومها وقد تهدل ثوبها الأبيض عن جسمها الخمرى الجميل وشاعت على شفتيها ابتسامة وديعة . وانسل فى بطء ثم فتح النافذة ليشرف منها على حيث قام منزل أبيه بعيداً عند أقصى عين شمس . . كان يحس بحنين غريب إلى غرفته البسيطة المتجردة من الأثاث والتى تبعثرت فيها مسرحياته المحبوبة التى طالما عاش بين أبطالها وبطلاتها وصادقهم وكرههم وأحبهم وحنا عليهم وتشاجر معهم ثم عاد فصفح ورضى . ولمح أمام باب الفندق كلباً لم يكد يسمع صوت النافذة حتى رفع رأسه وحرك ذيله ثم فتح فمه . . .

ودخل هواء الفجر من النافذة فاستيقظت « هى » وتقدمت على أطراف أصابع قدميها حتى وقفت خلفه . كان لا يزال يشخص فى ذهول شارد إلى حيث ظن أنه مكان المنزل الذى قضى فيه أعوامه الأخيرة . ورفعت يديها فى هدوء ثم وضعتها على عينيه وسألته فى حنان هائل :

ـ من أنا ؟ ـ فأجابها وهو يمر بأنامله فى رقة على ظهر يديها .

ـ أنت ـ وعندئذ رفعت يديها وجذبته نحوها وهى تقول :

ـ انظر لى أنا . . . ماذا هناك يستحق أن تطيل النظر إليه ؟

ـ كنت أظن أننى أستطيع أن أرى بيتنا من هنا .

ـ هل بدأ الحنين إلى بيت أهلك يشقيك بهذه السرعة ؟
ولوت شفتها السفلى فى امتعاض ورفعت كتفها العارى
فى دلال ثم أعطته ظهرها :

فأمسك بها وهو يقول :

ـ مالك يا حبيبتى ؟

ـ غاضبة .

ـ لم ؟

ـ أنت تعرف السبب .

ـ أقسم لك أننى لا أعرفه .

ـ لم تنظر لبيتك من النافذة بهذا الوله ؟ ـ وضحك
إذ ذاك وضمها إلى صدره ثم فمها . ثم قال لها :

ـ أنت مجنونة . أتغضبين من أمر كهذا ؟ إذن فأنا
أعدك ألا أعود إليه .

ـ أجل كما تركت أنا أهلى وحاولت نسيانهم يجب أن
تتركهم وتنساهم . أريد أن تشخص إلى عينى أنا وحدى
أوتطيل إليهما ـ دون غيرهما ـ النظر . . أريد أن أؤمن
بأنك لو قضيت الليل والنهار تحدق النظر إلىما مللت .

وأمسكت بيده ثم أدنت عينيها من عينيه . وانقضت برهة
صمت طويلة . وعاد هو إلى ضمها بين ذراعيه ثم أرسل ضحكة
عالية وقال لها :

ــ وأنت ألا تملين لو ظللت أحدق النظر فى عينيك أياماً بلياليها ؟

ــ أبداً

ــ فكرى قليلا . إنلك لا زلت طفلة لم ينضج تفكيرها بعد . . أتظنين ممكناً أن نستمر على الحياة معاً هكذا . منقطعين عن العالم دون أن تفكرى فى أهلك . ودون أن تندمى على ما أقدمت عليه فى ساعة نقمة ، ثائرة مجتاحه .

ــ أجل . ما دمت معك أحس بأنلك لى . لى أنا وحدى دون أية امرأة أخرى غيرى فإننى سأظل لك . إلى جانبك أتبعك كظل . إلى الأبد .

وتهدج صوتها بالدموع فضمها إلى صدره وطال عناقهما وارتفع صوت الكلب الرابض أمام باب الفندق بعواء غريب فانتفض جسمه برهة ثم قال لها :

ــ هذا الكلب صوته غريب . . ألم يخيل إليك أنه يضحك أثناء نباحه ؟

ومرت بعض القرويات الهابطات إلى القاهرة لبيع الخضر والبيض واللبن وارتفعت أصواتهم بالمناداة عليها . وتنبه الزوجان الشابان إلى أنهما ملتصقان بالنافذة وأن المارة قد يرونهما متعانقين فانفصلا وتمتم « هو » :

ــ أنا جائع

ـ سأعد إفطارك بنفسى ـ وانحنت من النافذة ونادت إحدى القرويات المارات لتستوقفها وأسرعت فوضعت على كتفها « ثوب الغرفة » ثم هرولت هابطة درج الفندق الريفى كأنها فى منزلها .

ودهش لتصرفها وهو يعدو خلفها :

ـ هل جننت حتى تخرجى إلى الطريق بهذا الثوب ؟

ـ ماذا أفعل إذن ؟ أيمكن أن أتركك جائعاً ؟ ـ وتبعها ثم أطل عليها من أعلى الدرج .

ـ عودى . وكلفى أحد الخدم بإعداد إفطارنا .

ـ لا . أبداً . يلذ لى أن أختار لك بيدى ما سوف تأكله . ماذا حدث حتى تضطرب هكذا إننا غريبان عن هذا المكان ولا يعرفنا أحد .

وأسرع فهبط الدرج خلفها وبعد قليل عادا يحملان بضع بيضات وقطعة كبيرة من الجبن وعدداً من قطع الزبدة الصغيرة وصعدا الدرج وصوت ضحكهما يدوى عالياً . .

وعاد الكلب يعوى فى نبرة أقرب إلى الضحك . . ولما اختفيا داخل الغرفة التفت « هو » وقال لها وهو يرهف السمع :

ـ أسمعت ؟ أن هذا الكلب سيفقدنى عقلى . . ما هذا الصوت ؟

فضحكت ثم قالت وهى تنسق صينية صغيرة استعارتها من الفندق :

ـ وما وجه الغرابة فى هذا ؟ لقد رآنا نضحك فشاركنا الضحك .

وخرج ابن اليونانى العجوز صاحب الفندق إذ ذاك من غرفته فى الطابق الأرضى على صوت عواء الكلب وكان شاباً فى نحو العشرين من عمره . فقد إحدى عينيه أثر رمد صديدى . ورنت فى أذنه ضحكات الزوجين الشابين فأطرق إلى الأرض ورسم علامة الصليب على صدره ثم عاد مسرعاً إلى غرفته وأغلق بابها .

٤

وانقضت بعد ذلك ثمانية أعوام . . .

وتخرج « هو » من كلية الآداب بعد أن اتضح له أن التوفر على كتابة القصة المسرحية لن يكفى لكى يعوله ويعينه على إعانة أسرته خصوصاً بعد إحالة والده إلى المعاش وإراحته من ارتداء « السترة » الزرقاء الداكنة المكتوب على صدرها بخيط « مذهب » كلمة « بريد » والجلوس خلف تلك المنصة الخشبية العالية فى مكتب بريد المطرية . .

وعين عقب تخرجه مدرساً للتاريخ بإحدى مدارس الأقاليم الثانوية . وانتقلت أسرته معه وانقطعت صلته بالقاهرة وأنديتها الأدبية . ولكنه لم ينقطع عن الكتابة للمسرح . كان ذلك مرضاً يعاوده بين كل وقت وآخر . وتظهر أعراضه فى شكل مسرحية

يسجن نفسه من أجل كتابتها فى غرفته ثلاثة أيام أو أربعة ويكلف أحد طلبته الذين كان يقوم بإعطائهم دروساً « خاصة » بتبييضها ثم يسرع بإرسالها إلى إحدى المجلات المسرحية .

إلى أن حدث ذات مرة أن أطلع مخرج مصرى معروف كان يشترك مع أحد كبار الممولين السوريين فى إدارة أحد مسارح القاهرة على مسرحية كان قد نشر هو جزء منها فى مجلة « المسرح المصرى » التى كانت توالى الصدور أيام كان لا يزال يتابع دراسته العالية فتحرى المخرج عن عنوان مؤلفها حتى عرفه وكتب إليه يرجوه السماح بتمثيلها . وانتهى الاتفاق بينهما ولم تلبث جدران العاصمة حتى انتشرت عليها الإعلانات الضخمة تنبئ بقرب عرض مسرحية « الليلة الأخيرة »

ومثلت القصة فعلا . وصدرت الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية عقب ذلك تحمل أخبار نجاح « الليلة الأخيرة » وتكرر عبارات التهنئة لمؤلفها الشاب . وقرأ « هو » أخبار ذلك النجاح فأسرع بطلب إجازة قصيرة وسافر إلى القاهرة ليشاهد تمثيل مسرحيته على المسرح الكبير . . .

كان ذلك فى ليلة من ليالى شهر مايو وكانت الجماهير تتدفق لمشاهدة « الليلة الأخيرة » التى لم يكن للصحف إذ ذاك شاغل إلا التحدث عنها ونشر صور مؤلفها ومخرجها وأبطالها وبطلاتها . والتى أشارت مجلة أسبوعية منتشرة إلى أن هناك فكرة

قوية متجهة إلى تكليف أحد الأدباء المصريين المتمكنين من اللغة الفرنسية بترجمتها إلى تلك اللغة ومحاولة اقتحام الأوساط المسرحية الباريسية بها كحفرية من حفريات الأدب المسرحي العصري الجديد . وجلس المؤلف فى إحدى المقصورات الخلفية مع مخرج القصة . وأخذ المخرج يتحدث إلى المؤلف هامساً مشيراً إلى أن قصته قد امتازت بأن فصلها الثالث من العنف بحيث يدل على حيويتة الفنية . وأن ذلك الفصل لم يخب فى أية ليلة من ايالى تمثيلها فى هز أعصاب النظارة وإثارة حماستهم وأنه حتى فى أقل الليالى نجاحاً . وهما ليلتا الاثنين والأربعاء كان مدير المسرح يضطر دائماً إلى الأمر بإعادة رفع الستار أ، بع مرات على الأقل لكى تتاح للمثلين فرصة الظهور أمام الجمهور المتحمس . ورد تحيته بالوقوف وقد انحنت هاماتهم.وأخذ المخرج يشير برأسه فى هزات خفيفة إلى الأسر التى احتلت المقصورات الجانبية ويسميها بأسمائها للمؤلف الذى هجر القاهرة قبل ذلك بنحو ستة أعوام والذى لم تتهيأ له فى يوم ما فرصة الاتصال بالأوساط الاجتماعية المصرية العالية التى اعتادت التردد على المسارح ودور السينما . وفجأة ارتجف المخرج وبدا الاضطراب فى خلجات أهدابه وارتعاش شفتيه . وأشار فى وجوم إلى المقصورة الثانية وهو يقول :

أترى هذه الشقراء التى تتقدم إلى المقصورة رقم ٢

لتتصدرها وحدها ؟ إنها من أغنى ثريات الإسكندرية . كل أصحاب المسارح ودور السينما يعرفونها حق المعرفة . إنها هكذا دائماً . كما تراها . كلما دخلت إلى مكان سمعت همهمة الناس ولاحظت تطلع أبصارهم إليها . . . جسمها مدهش ونظراتها عجيبة . توزعها فى تؤدة ورفق واعتزاز كأنها تؤمن بأن جميع من فى المكان كانوا ينتظرون قدومها ويتطلعون إلى التزود بنظرة من تلك النظرات . لقد أقبلت إلى هنا مرتين لمشاهدة مسرحيتك قبل الليلة ولاحظت أنها أطالت التصفيق بعد هبوط ستار الفصل الثالث .

وحدق «هو» النظر إلى «المقصورة» التى كان «المخرج» يتحدث وهو مصوب النظر إليها . وارتجف هو الآخر كانت « هى » .. « هى » بلا شك . ولذا مد يده إلى المخرج وسأله وهو يتجلد ويتظاهر بالهدوء :

ــ ماذا تعرف عنها أكثر من ذلك ؟

لقد اهتممت بالسؤال عنها منذ وقع بصرى عليها لأول مرة . وعلمت أنها كانت متزوجة من طبيب بدمنهور ثم انفصلت عنه بالطلاق منذ مدة طويلة . ويظهر أنها تزوجت غيره . وهناك من يذهب إلى أنها تزوجت غيرهما . إنها امرأة تحيطها الألغاز . ولم يهتد أحد بعد إلى

حل لغز واحد منها . لن أخفى عنك أن غموض هذه المرأة يحيرنى كل الحيرة ومع ذلك فإننى لست حديث عهد بطبائع النساء . لقد سافرت . وتنقلت بين معظم بلاد أوربا . اتخذت صديقات لى من ممثلات « البورت سان مارتان » وراقصات « الكابريس فينوا » وقعيدات « الدوم » وسميرات « الكرة السوداء » عند ما كنت طالباً أتلقى العلم فى باريس . ورغم كل ذلك يجب أن أعترف لك أننى لم يسبق أن ارتعدت أمام امرأة كما ارتعد كلما وقع بصرى على هذه المرأة . . أكاد أقسم — دون أن يخبرنى أحد — أن نصف رجال القاهرة قد سبتهم نظراتها فأحبوها .

فالتفت إليه مندهشاً وسأله :

— وأنت . هل أحببتها ؟

- لم يكن حباً . بل كان جنوناً .

— أعهدك رزيناً

— رزانتى أصبحت إشاعة قديمة منذ رأيتها . لقد ظللت ستة أشهر أتتبعها وأتنسم أخبارها . وأحوم حولها إلى أن تبينت أننى سأفقد رشدى . إن لم أكن قد فقدته فعلا . فجمعت البقية الباقية من قواى واقنعت نفسى بأننى لست نداً لها .

ـــ كيف ؟

ـــ إنها أقوى من أى رجل مهما ادعى أن له ماضياً عابثاً . حافلا بالمغامرات .

ـــ ولم ؟

ـــ لا تكتف بالاستماع إلى قصتى معها . اسأل غيرى لتعلم أموراً غريبة عنها لم نسمع بمثلها فى مصر من قبل

ـــ ما وجه الغرابة فيها ؟

ـــ ذاع عنها أنها اعتادت أن تسرف فى العبث بقلوب الرجال عبثاً لا رحمة فيه . وتتركهم حيارى لا يعرفون السبب فى تنكرها لهم . يقولون إن لها « فيلا » فى « سابا باشا » على شاطئ الإسكندرية ولها « عوامة » فى الزمالك تقيم فيهما حفلات مدهشة . يظهَر فيها بذخها وذوقها الرقيق وأناقة الجو الذى تحيط به نفسها . إنما عرف عن الذين تدعوهم إلى تلك الحفلات أنهم لا يعودون إليها مرة أخرى فيعيشون بحسرة الدعوة الأولى والأخيرة .

ـــ عجيبة .

ـــ لا تظن أننى أغالى . إنها قادرة على أن توهم الواحد منهم أنه أقرب الناس إلى قلبها من حبات هذا العقد اللؤلؤى الذى يتألق على صدرها . فإذا اطمأن إلى ذلك

وذهب رافع الرأس مزهو العاطفة إلى إحدى حفلاتها
تبين أنه كان واهماً أكبر الوهم . وأحس بهول السخرية
التى سخرتها منه فلا يعود . لقد أخبرتك أننى ظللت
أعدو خلفها ستة أشهر كدت أغلق أبواب المسرح
بعدها وأعلن إفلاسى فى عمل وضعت فيه زهرة شبابى
وخلاصة أمالى ومع ذلك فإننى لم أستطع – طول هذه
الشهور الستة – أن أتحدث إليها إلا ثلاث أو أربع
مرات لم تزد كل مرة عن بضع دقائق . فما بالك لو
كانت دعتنى إلى إحدى حفلاتها كما دعت غيرى .
انظر إلى عينيها من بعيد ... دقق النظر إليها . .
إنها شريرة . . . ؟

وسمعت إذ ذاك الدقات الثلاث وارتفعت الستار عن الفصل
الأول من « الليلة الأخيرة » وأنصت الجمهور إنصاتاً تاماً
ولكن المؤلف أدنى مقعده من المخرج وسأله قائلا :

– من أين جاءك أنها شريرة ؟

– لأنها هزأت بكل من عرفته . إن أخبار ضحاياها
من الرجال تتناقلها الشفاه المرتجفة . من رغبة فى
التحدى . وعجز باد عن تحقيقه . إننى أعرف مهندساً
ناجحاً غررت به . ورؤيت أكثر من مرة إلى جانبه .
فى سيارته . يتجهان فى طريق وادى النطرون إلى

« خيمة » كان قد أعدها هذا المهندس لأقامة حفلات زانتها أرشق السيدات الأوربيات اللاتى يعمل أقاربهن فى الشركة الهندسية التى تستغل ذلك الوادى . وخيل إلى الناس أن المهندس الشاب قد غزا قلبها ولكن . . .

ـ ولكن ماذا ؟

فضحك ضحكة فاترة وأجاب :

ـ ولكنها كعادتها اختفت فجأة . وتركت آثار الحسرة على وجه صديقها المهندس . بل إن الصدمة كانت من الشدة بحيث أطلقت لسانه بما فهم الناس منه أنه « ضحية » أخرى أضيفت إلى ضحاياها التى لم تنل منها إلا السخرية ـ وأدنى المخرج شفتيه من أذن المؤلف ثم همس فى صوت مرتعد ـ علمت أخيراً أنها أحبت أميراً تركياً يعيش فى دار فخمة بإحدى ضواحى القاهرة ولكن أحداً لا يعرف مقرها لأنها لا تخرج معه أمام الناس .

ـ وما دام لم يرهما أحد . كيف عرفت أنها تحبه ؟

فابتسم المخرج ابتسامة هادئة وأجاب :

ـ آه . إنها قصة طويلة . . لما أحببتها وبدأت أعنى بالتحرى عنها عرفت أن لها خادمة سورية تتردد على الحفلات النهارية فى دور السينما فتوصلت إلى معرفتها .

وأعطيتها ذات مرة جنيهاً وسألتها عن سيدتها فأخبرتنى
أن الرجال الذين يجهدون أنفسهم فى الوصول إليها
مجانين لأن سيدتها عاشقة . .

وكان الجمهور القريب منهما قد لاحظ أنهما لاهيان عن مشاهدة التمثيل بالحديث وارتفع همسهما وسط سكون القاعة فأخذت الأنظار تتجه إليهما فى احتجاج صامت . وعندئذ نهض « هو » مستأذناً متظاهراً بأن لديه موعداً هاماً فى الخارج . فقال له المخرج وهو يودعه إلى الباب :

ــ يجب أن تشاهد الفصل الثالث . إنه مدهش . . .

ولكنه لم يجبه.

وبينما كان المؤلف الشاب يغادر القاعة حانت منه رغماً عنه التفاتة إلى المقصورة التى جلست فيها « هى » .

كانت قد اتكأت على المسند القطيفى الأحمر فى رشاقة وقد أخذت نظارة من نظارات اليد المكبرة تتنقل بين أصابعها لم يدر إذا كانت قد رأته وعرفته أم لا . ولكنه على أى حال أسرع بالخروج وترك مسرحيته تمثل على المسرح وزوجته السابقة تشاهدها .

٥

وبعد ظهر اليوم التالى مر المخرج بالفندق الذى كان قد نزل « هو » فيه ولم يكد يقع بصره عليه حتى فاجأه صائحاً :

ـ قلت لك انتظر لغاية الفصل الثالث . لقد فاتك نصف عمرك .

فسأله مذهولا :

ـ كيف ؟

ـ استدعتنى بعد الفصل الثالث وقالت لى إنها تدعونى أنا والمؤلف لتنال الشاى اليوم بعد الظهر . فى « عوامتها » بالزمالك ورجتنى أن أنقل لك هذه الدعوة . البس حالا ـ فهز كتفيه وقال فى غير اكتراث :

ـ لم العجلة ؟

ـ لا تتكلف الرزانة . غيرك كان أشطر . . أؤكد لك أنك بعد أن تتناول الشاى اليوم ستحبها وستفقد وعيك. إنما خذها منى نصيحة . إياك أن تظن أنها ستظل وفية لك طول عمرك . يحتمل أن تقابلك مرة أو اثنتين لأنك شاب معروف وناجح . ولا عجب فى أن تعجب بك أية امرأة . ولكن توقع دائماً أنها ستغدر بك كما غدرت بغيرك .. ستتلفت حولك يوماً فلا تجدها . وتبحث عنها فى كل مكان فلا تهتدى إليها . وقد تنقضى سنة أو سنتان ثم تلقاك صدفة فتطيل النظر إلى وجهك وتهز رأسها قائلة « إننى أذكر أننى رأيتك قبل اليوم . إنما أين ؟ لا أعرف » ـ فقال له فى صوت متئد :..

ــ سأذهب إلى منزلها لأثبت لك أنك تبالغ كثيراً فى خوفك إن لم تكن واهماً .

ــ أقوى منك ومنى وقعوا ولم يجدوا من يأخذ بيدهم .

ثم أرسل ضحكة عالية ساخرة وأعطاه ظهره وتقدم إلى النافذة فصرخ « هو » قائلا :

ــ لو بقيت معك ساعة أخرى لفقدت رشدى . من « هى » تلك التى سأقع بسببها فلا أجد من يأخذ بيدى ! إنى تظاهرت بعدم معرفتها لكى أنتهى من الاستماع إلى خرافاتك عنها . ولكننى أعرفها أكثر منك ومن غيرك . هذه التى تتحدث عنها منذ أمس « هى » . . . زوجتى .

فالتفت المخرج إليه وقد ظهر الذعر على وجهه وتمتم مذهولا :

ــ ز . . و . . جتك ! ماذا تقول ؟

ــ أقول لك إنها كانت زوجتى . تزوجتها وعشنا معاً شهرين. كان ذلك منذ ثمانية أعوام . وكنت إذ ذاك لا أزال طالباً بكلية الآداب وكانت هى طفلة لم تكد تتجاوز العشرين ــ وأطرق إلى الأرض قليلا ثم استمر بعد أن زفر نفساً حاراً طويلا ــ لم أكن أريد أن أفضى إليك بكل هذا ولكنك دفعتنى إلى الإفضاء . لعلك تسائل نفسك الآن « ترى كيف ستقابله عندما

تراه داخلا إلى بيتها ؟ » — وعندئذ تمتم المخرج فى صوت مختنق وهو لا يزال ناظراً إلى المؤلف بعينين شاردتين وفم مفتوح :

— هيه . ماذا حدث بعد ذلك ؟

— لا شىء . كنا طفلين . وكان أبى رقيق الحال . أتى بالمعجزات حتى تمكن من الإنفاق على حتى أتممت الدراسة الثانوية . ثم التحقت بالقسم المجانى فى كلية الآداب . ولكنها كانت غنية . إن أهل الإسكندرية يعلمون أن أباها يملك عزبة فى مديرية البحيرة وسبع عمارات فى محرم بك . كان فرقاً كبيراً بينى وبينها و . . .

— وماذا ؟

— وكانت «هى» قاصراً . . أوه . إن هذه الذكرى تثير أعصابى . . .

— تكلم . . لابد أنك شاهدت أموراً عجيبة . كيف استطعت أن تخفى عنى كل هذه التفاصيل وأنا أحدثك عنها .

— قلت لك إننا عشنا معاً شهرين . لا أظن أن اثنين غيرنا تذوقا ما تذوقناه من سعادة . وذات يوم فوجئت بضابط نقطة المطرية يقتحم الفندق الذى كنا نقطنه ومعه جنديان وحكم صادر من المحكمة الشرعية بالتفريق بينى وبينها لعدم الكفاءة .

ـ كيف ؟

ـ رفع والدها دعوى قرر فيها أن ابنته قاصر وأنها تزوجت من شاب معدم . لا يزال عالة على أبيه الذى لم يتعد مرتبه بضعة جنيهات كوكيل أحد مكاتب البريد . وأنها باعت مصاغها لتنفق على ذلك الشاب وظل محامى أبيها يترافع مدة طويلة ــ كما علمت فيما بعد ــ ويذكر أننى غررت بها وخدعتها لأسلب مالها . حتى صدر الحكم .

ــ وبعد ؟

ــ أخذوها بالقوة . غادرت الفندق ودموعها تنهمر على وجنتيها فى ألم عميق .

ــ ولكن . ماذا فعلت هى بعد ذلك ؟

ــ تلقيت منها رسالة بعد أسبوعين أخبرتنى فيها أنها تكاد تكون سجينة سراى أبيها فى « محرم بك » ــ وارتجف صوته وهو يتابع هذه الجملة ــ لم تصبح زوجتى بحكم التفريق الذى أصدرته المحكمة الشرعية. ظهر لى أنها ارتاحت إلى ذلك « الحل » . . .

ــ من أين جاءك هذا ؟

ــ أعادت لى « الدبلة » التى كنت قد أهديتها إليها يوم زواجنا .

ـــ وماذا حدث لك بعد ذلك ؟

ـــ لا شيء . عدت إلى بيت أبى فى عين شمس . كانت الصدمة شاقة فى بادئ الأمر . أذكر أننى ظللت أبكى بضع ليال وأنا سجين غرفتى . وأننى كتبت الفصل الأول من مأساة بطلها شاعر شاب أحب فتاة ثرية وهرب معها ثم . . ثم تذكرت أن امتحان كلية الآداب قد اقترب موعده فدفنت ذلك الفصل تحت « مرتبة » السرير وانصرفت إلى المذاكرة . وبعد بضعة شهور . بينما كنت أتصفح إحدى المجلات المصورة وقع بصرى على صورتها إلى جانب أحد الأطباء وتحتها كلمات فهمت منها أنها تزوجته وأنهما سافرا إلى لبنان لقضاء شهر العسل . .

ـــ ولم تعد تسمع شيئاً عنها ؟

ـــ أجل . تلقيت منها خطاباً بعد نشر تلك الصورة بنحو سبعة أو ثمانية شهور . عرفت خطها بمجرد أن وقع بصرى على الظرف الذى يحمل اسمى وعنوانى . ولكن لعلك تذهل عندما أخبرك أننى لم أشأ أن أعرف ما فيه . . فكتبت على الظرف من الخارج « يرد للراسلة » وأعدته إلى ساعى البريد .

ـــ كيف جرؤت على ذلك ؟

كنت قد اعتزمت أن أنساها. ولم أعد أطيق فكرة أنها قد هزأت بى . وخيل إلى أنها بعد أن أطاعت أهلها وتزوجت من غيرى أرادت أن تلهو بعاطفتى فأرسلت إلى تلك الرسالة لكى أعود إلى الاهتمام بها . فلم أشأ . ومنذ ذلك اليوم لم أعد أهتم بها . بل لم أسمع شيئاً عنها حتى رأيتها أمس فى قاعة هذا المسرح .

وأطرق المخرج إلى الأرض. وانقضت فترة صمت طويلة رفع رأسه بعدها ونظر إلى المؤلف ثم سأله :

— أتستطيع أن تخبرنى لم طلبت منى أن أدعوك اليوم إلى تناول الشاى عندها ؟

— ليس الجواب على هذا السؤال صعباً . إن أية امرأة لا تجد بأساً فى أن تتسلى .

— ولم تذهب إذا كنت معتقداً أنها إنما دعتك لتتسلى ؟

فأجاب وهو يفتح دولاب الثياب ويخرج إحدى بذله الأنيقة :

— أؤكد لك أننى ذاهب متأثراً بغريزتى ككاتب مسرحى . يخيل إلى — بعد ما سمعته منك — إن هناك أموراً أخرى على أن أدرسها .

٦

فى مساء اليوم التالى دق جرس التليفون فى الفندق الذى كان ينزل فيه مؤلف مسرحية « الليلة الأخيرة » وكانت « هى »

المتحدثة فطلبت من خادم الفندق أن يستدعى المؤلف الشاب .
فلما أقبل فاجأته قائلة :
ــ لابد أن أراك الليلة . لعلك لاحظت أننى لم أستطع أن أكلمك أمس أمام الضيوف الذين كانوا يتناولون الشاى عندى .

وقبل « هو » الدعوة ، ووقف برهة طويلة أمام المرآة يتأنق فى ارتداء ثيابه ثم أسرع بالذهاب إلى « عوامتها » الراسية إلى جانب النيل بالزمالك .

كانت الساعة التاسعة مساء وكان اليوم يوماً قائظاً من أيام الصيف وقمر القاهرة يتوسط السماء مطلا على النيل ومرسلا أشعته غامراً بها المنازل النيلية العائمة على سطح النيل مضفياً على ذلك المكان الهادى لوناً شعرياً رائعاً .

واستقبلته الخادمة السورية الشابة عند أول الممر الخشبى المرتفع الذى يصل بين الطريق وباب العوامة ثم أدخلته تواً إلى الصالون الواسع الذى كانت «هى» قد تمددت فى ركن من أركانه على أريكة زرقاء اللون وقد التف حول خصرها الأهيف فى وضع فاتن ثوب أزرق من ثياب الغرفة واهتزت على شفتيها السفلى سيجارة مشتعلة لم يكن لهبها أحمر بل كان هو الآخر مائلا إلى الزرقة لأن ضوء « المصباح الساهر » الذى كان يعلو عاموداً خشبياً ضخماً مزيناً ببضعة نقوش يابانية من

الصوف كان مستوراً هو الآخر بقماش حريرى أزرق .

لقد بهره جمالها عندما وقف بباب الغرفة الزرقاء يلقى عليها نظرة خاطفة . ولكنه تكلف الهدوء كأن العودة إلى رؤيتها وحيدة فى غرفة مغلقة النوافذ مغرية الجو لم تهز عواطفه هزاً عنيفاً.

ورفعت « هى » أنامل يدها اليمنى فى حركة رشيقة وانتزعت سيجارتها التى كانت قد التصقت بشفتها السفلى ثم نفثت كمية من الدخان الذى كان محتبساً فى صدرها وقالت له :

ـــ مالى أراك واقفاً على بعد هكذا ؟ ـــ وأرسلت ضحكة قصيرة جافة ثم تابعت قولها وهى تضم أطراف رداء الغرفة الأزرق :

ـــ تفضل

وجلس على مقعد مجاور لها . وانتظرت أن يبدأ الحديث فلم يفعل وعندئذ قالت له وهى تهز رأسها هزات هادئة رزينة :

ـــ ترى كيف نبتدئ الكلام ؟

ـــ هذا يتوقف على ما تودين أن تقوليه .

ـــ أريد أن أتحدث عما حدث بينى وبينك .

ـــ أمس ؟

ـــ لا قبل ذلك منذ ثمانية أعوام ـــ وتمتم « هو » فى نبرة مؤثرة وصوت خافت :

ـــ ثمانية أعوام . . .

ـ لا أكاد أصدق أنك يمكن أن تتذكر كل ما حدث قبل هذه الأعوام الثمانية . لو أنك نسيت لكنت معذوراً . إنه عمر آخر .

ـ لم أنسن شيئاً

ـ متأكد ؟

ـ بل واثق

ـ لا تستطيع أن تتصور كم أنا سعيدة إذ أسمع منك هذا

وأطرقت إلى الأرض فى شبه إغفاءة ذاهلة ثم رفعت رأسها فجأة وقالت :

ـ لقد دعوتك لأصحح بعض أمور لاشك أنك أخطأت فهمها . أمور لا زلت تجهلها إلى اليوم . تصور . لقد شاء القدر أن تحدث أمور فى حياتى تجهلها حتى أنت !

فسألها وقد شاعت على شفتيه ابتسامة ساخرة :

ـ وما هى ؟

ـ أبعد هذه الابتسامة التى تفيض عناداً . هذا الخلق العنيد هو الذى جعلنا نتعذب ثمانية أعوام

فارتفعت من جوفه ضحكة قصيرة جافة . تكلف أن تنطلق ساخرة ماجنة ثم قال لها :

ـ من قال لك إننى تعذبت ؟

ـ لا داعى للمكابرة . إننى أعترف بأننى أسأت إليك إساءة كبيرة ولكن ضميرى مطمئن لأننى أديت واجبى بعد ذلك ـ وسكتت قليلا ثم مدت يدها وتناولت يده وهى تسأله ـ إنك لم تقرأ الخطاب الذى أرسلته لك . ورددته إلى دون أن تفضه . لو أنك قرأته لعرفت كل شىء . :

ـ ماذا كنت تريدين أن أعرف بعد أن أعدت لى « الدبلة » وقلت إن أهلك ضغطوا عليك وطلقوك منى . ثم بعد أن رأيت بعينى صورتك فى الصحف إلى جانب زوجك الجديد . كان يكفى جداً أن أعرف كل هذا

ـ لكل شىء سبب . لقد تسرعت

ورفعت ساعدها ولمست أطراف القماش الحريرى المنسدل على « المصباح الساهر » وعندئذ سقطت الغلالة الحريرية التى كانت تستر كتفها فبدا كتفها عارياً يفيض أنوثة وإغراء وسحراً

وتدفقت ذكريات الشهرين اللذين قضاهما إلى جانبها فى الفندق الريفى المتواضع بالمطرية إلى خياله . وخطر له إذ ذاك أن ينهض من مقعده ويحملها على ساعديه ثم يضمها إلى صدره ويقبلها قبلة حارة ملتهبة نشوى . ولكنه أصر مرة أخرى على أن يتكلف الهدوء وعدم الاكتراث فأخفى أصابع يديه تحت المقعد وتركها تتقلص فى ثورة صامتة . وبعد قليل عادت

فالتفتت إليه وأدنت وجهها من وجهه ثم قالت له :

ــ أنا لا أنكر أن أهلى ضغطوا على وأرغمونى على الزواج بغيرك إنما كان عليك أن تنتظر .

ــ من منا كان عليه أن ينتظر ؟ لقد أرغموك على الطلاق منى . إنما الزواج بغيرى لم قبلته إذا كنت تحبيننى ؟

وعندئذ صرخت قائلة :

ــ لا شك أننى كنت أحبك إنما أنت لا تعرف ما عملوه لكى أقبل الزواج من غيرك . لقد كذبوا على وغشونى اجتمع أخى وأخوالى وعماتى وقالوا إن أبى ضاعت ثروته كلها فى مضاربات البورصة وأوهمونى أن خطيبى الطبيب هو الذى ضمنه أمام دائنيه. أقسم لك أن عمتى ومربيتى كانتا تبكيان بالدمع المنهمر وهما تسردان لى أخبار تلك الكارثة إلى أن أفلحتا فى إقناعى ــ وابتسمت ابتسامة مرة . وعادت إلى تدخين سيجارتها فى شراهة مخيفة ثم تابعت كلامها ــ لعلك تذكر أننى كنت إذ ذاك طفلة لم أستطع أن أفهم الحيلة التى دبرت لكى أقبل ذلك الزواج الذى فرض على . كيف تريدنى أن أفهم ذلك فى الوقت الذى لم أكن أستطيع أن أتبين معالم الطرق فى القاهرة وضواحيها؟ أنسيت يوم عثرت بى وقد تهت فى طريق عين شمس ؟

ــ لم أنس شيئاً

وتهلل وجهها بشراً . واهتز شعرها المتهدل على عنقها العارى الجميل بضع هزات موسيقية منتشية وقالت فى نبرة فرحة :

ــ إنك تنادينى تماماً كما كنت تفعل منذ ثمانية أعوام . آه لو عرفت كم شقيت وكم أشقيت لأجلك ! لقد أحلت حياة الرجل الذى انتزعنى أهلى منك ليزوجونى منه إلى جحيم لأجلك . كان يكبرنى بنحو ثلاثين عاماً . وكنت أعرف أننى تزوجته لكيلا تجحد الأسرة جميله الذى أوهمونى به على المرحوم أبى . خطر لى ذات يوم أن أنتحر وحاولت ذلك ــ وارتعد صوتها وبان التأثر الشديد عليه ثم خفضت رأسها إلى الأرض فأدنى عينيه من وجهها وتمتم فى شبه حشرجة :

ــ مجنونه !

ــ تناولت عشرة أقراص من « الأسبرين » تجلدت حتى تناولتها قرصاً بعد الآخر . كدت أموت ولكن الخادمة السورية التى رأيتها عندى أسرعت فأخبرت « مربيتى » التى كانت قد أقبلت لقضاء بضعة أيام فى منزلى بدمنهور . وارتفع صراخها وأقبل طبيب يونانى كان يقطن منزلا مجاوراً لى لإنقاذى . لا زلت أذكر أننى لما أفقت تعمدت ألا أشكره لأننى كنت أود أن

أتخلص من حياتى التعسة . إلا أننى ظللت أذكر جميل هذا الطبيب على فيما بعد . عندما اتصل بى أنه ثار أمام أختى صارخاً « إننى واثق من أنها ستعود إلى محاولة الانتحار لأن هناك عذاباً نفسياً هائلا يسبب لها هذه النوبات العصبية. اعملوا على إزالة هذا العذاب إذا كنتم تريدون أن تحتفظوا بهذه الشابة . »

فأطرق « هو » إلى الأرض ثانية ثم قال فى صوت متقطع :

ـــ إذن . فقد رأيت كل هذه الأهوال ؟

ـــ أجل . إنما تجلت لى الحقيقة بعد ذلك . عرفت أنهم خدعونى فصممت على الطلاق . وعشت بعد الطلاق حياة عجيبة لابد أنك سمعت عنها .

فقاطعها :

ـــ أخبارك تلوكها الألسن فى كل مكان . « فيلا » فى « سابا باشا » وعوامة فى الزمالك . وحفلات تقام حتى الصباح وسهر فى المسارح ودور السينما .

ـــ ها . ها . إننى أعرف أحد مصادر هذه الأخبار . . مخرج قصتك أليس كذلك ؟

ـــ أجل

ـــ لابد أنه أضاف إليها أننى امرأة بلا قلب أجيد الغدر بالرجال . وأننى شريرة . يلذ لى العبث بالضحايا

والسخرية منهم ـ وسكتت قليلا ثم عبس وجهها وانتفض جسمها وقالت فجأة ـ قلت لك إن الطبيب اليونانى الذى كان جاراً لى فى دمنهور قد أنقذ حياتى عندما حاولت الانتحار . وقد عشت بعد ذلك كما ترانى . منذ ذلك اليوم الذى تناولت فيه عشرة أقراص من « الأسبرين » وأنا تحت تأثير شعور غريب شعور بأن شيئاً ينقصنى شيئاً مهماً ضرورياً لكيانى مكملا لروحى أحيانا أظل أتلفت حولى لكى أبحث عن ذلك الشىء الضائع فلا أجده . لقد ضاع ولن أستطيع العثور عليه ـ ونظر إليها مذهولا ثم سألها :

ـ ماذا تقولين ؟

ولكنها لم تجبه بل وضعت يدها اليمنى على ساقه وهزت كتفه بيدها اليسرى قائلة :

ـ أتذكر الكلب الأبيض الذى رأيناه اغداة يوم زواجنا ؟

ـ أجل . أذكره

ـ أتذكر ما لفت نظرنا فيه ؟

ـ أجل . أذكر كل شىء عنه

ـ أتعرف أننى ظللت مدة طويلة أجهد نفسى فى التفكير فيه وأتساءل « ترى أكان ذلك الكلب يضحك منا عندما هبطت الفندق وتقدمت إلى عرض الطريق

لأشترى بيضاً من القروية المارة لأجل إفطارك أم أنه كان يضحك معنا لما لاحظنا دهشة صاحب الفندق . وتبادلنا نحن الاثنان أنا فى الطريق وأنت فى نافذة غرفتنا نظرة طويلة ثم كتمنا ضحكة كادت تنطلق من حلقينا . . » ماذا تظن ؟

فنظر « هو » إليها نظرة طويلة فاحصة كأنه يتشكك فى قواها العقلية وبعد صمت قصير نهض واقفاً وهو يقول :

ـــ أظن أن من الأفضل أن أستأذن فى الانصراف .

ـــ هل أنت على عجل ؟

ـــ عندى عمل هام يستدعى أن أتركك الآن .

ومد ساعده فطوق خصرها وجذبها نحوه وطبع على وجنتها قبلة سريعة . ثم غادر « العوامة » .

٧

وفى ظهر أحد أيام الأسبوع التالى فوجىء وهو جالس فى مطعم من مطاعم شارع ألفى بك يتناول الغذاء بقدوم المخرج الذى لم يكد يقع بصره عليه حتى صاح به قائلا :

ـــ أين كنت ؟ لقد بحثت عنك فى كل مكان . ماذا فعلت معها ؟

ـــ مع من ؟

ـ إيه . ألا تعرف مع من ؟

ـ لا شيء ـ فقهقه المخرج ضاحكاً ثم قال :

ـ إنها تطبع كل ضحاياها بطابع واحد . إنهم جميعاً تبدو عليهم علامات الإعياء ومع ذلك إذا سألت الواحد منهم عنها أجابك « إننى لا أراها ولا أعرف شيئاً عنها »

ـ ظروفى تختلف عن كل الذين تتكلم عنهم . أنا لا أنكر أنى شعرت بشعور غريب لما كنت عندها فى الأسبوع الماضى . لست أدرى . . يخيل إلى أننى أحب المرأة التى كانت يوماً ما زوجتى والتى كانت تحبنى حتى العبادة ولكن الأغرب إننى لما قبلتها ابتسمت لى كأننى طفل أتجرأ على شىء لا حق لى فيه ومع ذلك فأنا واثق من أنها كانت تريد أن تضحى أهلها لأجلى. هربت منهم فعلا وعاشت معى شهرين. ماذا جرى لى ؟ ـ وأخذ يتلفت حوله فى اضطراب ثم تابع كلامه ـ يظهر أننى اكتشفت فجأة أننى أحبها . هذا جنون . ـ فجمع المخرج أوراقه ثم تركه وهو يقول :

ـ عزاؤك يا صديقى أن لك زملاء عديدين فى هذا النوع من الجنون .

وبعد بضع دقائق كان « هو » يستأذن من الخادمة السورية فى الدخول لرؤية سيدتها بعوامتها الراسية

على شاطئ النيـــل بالزمالك . لقد قاوم أسبوعاً كاملاً لكى يثبت أنه يفترق عن غيره من الرجال الذين سلبتهم نظراتها وأذهلهم دلالها ولكنه لم يستطع وذهب صاغراً كما ذهب غيره ولشد ما كانت دهشته عندما أجابته الخادمة قائلة :

ـــ الهانم ليست هنا

ـــ إذن أنتظرها

ـــ لا فائدة . فقد سافرت ـــ فشهق شهقة حادة وصرخ :

ـــ أين ذهبت ؟

ـــ لا أعرف . إنها لم تعتد أن تخبرنا بالمكان الذى تذهب إليه

وبدا عليه الاضطراب الشديد . وتذكر بعد قليل ما كان قد أخبره به المخرج من أنها تتعمد الاختفاء بعد أن تطمئن إلى انتصارها فى إذلال رجل . وأن لها صديقاً من الأمراء الأتراك يقطن إحدى ضواحى القاهرة .

ـــ ألم تترك لى شيئاً ؟

ـــ أجل تركت لك هذا الخطاب

ـــ لم لم تخبرينى ؟

ـــ أمرتنى ألا أعطيه لك إلا إذا سألت

وأسرعت الخادمة فأخرجت خطاباً قدمته إليه فقرأ هذه الكلمات :

« عندما تصلك هذه الرسالة أكون قد فارقت الحياة »

وعاد يقلب المظروف بين يديه وعندئذ اتضح له أن خاتم البريد يعود تاريخه إلى ثمانية أعوام مضت . لقد كان نفس الخطاب الذى أرسلته بعد أن تم زواجها الثانى والذى رفض إذ ذاك أن يستلمه فرده دون أن يفضه وأخذ يقرأ فى لهفة ظاهرة :

« لقد تزوجت منذ بضعة شهور وأصبحت أحمل اسم رجل لا أحبه. إن مجرد تصور هذه الحياة التى أحياها تثير ذعرى لو أنى لم أعرفك لما شقيت بهذا الزواج ولاستطعت أن أحتمله كما تحتمله الآلاف غيرى ولكننى أصبحت أوقن بأن الاستمرار على الحياة إلى جانب هذا الرجل ضرب من المحال . إننى أشمئز من حياتى وأمقتها ولقد فكرت طويلا فلم أجد حلا إلا التخلص منها . لقد أخطأت إذ تركت أسرتى تتحكم فى حياتى هذا التحكم الطاغى ولكننى كنت ضعيفة . إنها خطيئة كبرى أن أضعف إلى حد أن أشترك معهم فى الإساءة إليك هذه الإساءة الأليمة . هأنذا أكفر وأدفع الثمن. لا يهمنى أن تكون مقيماً الآن على حبى أو أن تكون قد زهدت ذلك الحب ولكن هناك شيئاً سأهتم له كثيراً بعد أن يتجمد الدم الذى يتدفق الآن من قلبى. أتعرف ما هو ؟ أنصت إلى يا حبيبى . إننى لا زلت زوجتك وإذا كان حقاً ما قرأته معك يوماً فى غرفتنا بذلك الفندق الريفى الجميل القائم إلى جانب طريق المرج من أن

الروح تعود إلى الحياة بعد الموت فثق أن روحى ستعود لكى تحوم حول ذلك الفندق الذى أحتفظ له بأعز الذكريات إذا ذكرت يوماً حبنا فاذهب فى مثل يوم زواجنـــا من أى عام تجد روحى هناك تشترك معك فى الاحتفال بتلك الذكرى . لن أتخلف عن عيد من الأعياد التى ستحتفل فيها بذكرى الزواج الذى شاء القدر أن يكون عمره أقصر مما قدرنا له . . .

التى لك إلى الأبد »

ولما انتهى من تلاوة هذه الرسالة سقط ساعداه وأحس بقواه تخور فاستند إلى جدار العوامة الخشبى وتمتم وهو ينظر إلى الخادمة السورية وقد ابتعدت مذعورة عندما لاحظت تقلص عضلات وجهه وتجهم قسماته .

وفجأة استعاد قواه فخطا خطوات واسعة وأسرع بمغادرة العوامة . وبعد قليل كانت السيارة تنهب به طريق المطرية نهباً .

٨

دهش اليونانى مدير فندق « ريش » بالمطرية عندما رأى شاباً يغادر سيارة أقبلت مسرعة من القاهرة ووقفت فجأة أمام فندقه ويسأله أن يسمح له باستئجار الغرفة المطلة على الطريق الزراعى وهو يرفع رأسه إلى نافذة الغرفة يشخص إليها

محدقاً فى نظرات محمومة ولهى بين كل آونة وأخرى . وبعد أن أفاق اليونانى العجوز من دهشته التفت إلى الشاب وأجاب بفرنسيته العرجاء :

ــ ولكن الغرفة مشغولة يا سيدى ــ والتفت إذ ذاك إلى ابنه الأعور فاشترك الابن فى الحديث قائلا :

ــ أجل يا سيدى إن الغرفة التى تقصدها مشغولة ــ وابتسم ابتسامة حزينة وهو يضغط على كلمة مشغولة وتابع اليونانى العجوز حديثه :

ــ هنا سيدة قد استأجرتها ــ وسأل «هو» مندهشاً :

ــ سيدة ! ــ واتسعت حدقتا عينيه وارتجفت شفتاه وامتقع لونه :

ــ أجل سيدة يا سيدى. تحضر عادة فى مثل هذا اليوم من كل عام . أصبحت أحفظ التاريخ عن ظهر قلب . ٢٢ مايو ــ وعندئذ هز رأسه « هو » وتمتم معه ــ ٢٢ مايو ــ وبعد تفكير قصير اتجه إلى الدرج وأخذ يصعده مسرعاً قبل أن يتمكن اليونانى العجوز أو ابنه من اللحاق به. ولما وصل إلى باب الغرفة وجده مفتوحاً فاقتحمه وعندئذ رآها « هى» مستلقية على « المقعد الطويل » فى « بيجامة » حمراء نفس « البيجامة» التى ارتدتها ليلة الزفاف قبل ذلك بثمانية أعوام .

ولم يكد بصرها يقع عليه حتى صرخت :
وتقدم « هو » إذ ذاك إليها ثم رفعها بين ساعديه وقال لها
وهو يغمرها بقبلاته فى صوت خافت متهدج — لنتزوج —
فأجابته وهى تتعلق بعنقه كطفلة مرحة :
— يجب أن أتأكد
— مم تريدين التأكد ؟
— من أنك تحبنى
— أتشكين فى حبي لك ؟
فقبلته طويلا وهى تجهش بالبكاء

* * *

وبعد قليل كان الشابان يطلان من النافذة فرأيا الكلب الصغير قابعاً على الإفريز المقابل لباب الفندق وقد رفع عينيه إليهما وعندئذ بان الذعر على وجهه وقال لها :
— أيمكن أن يظل هذا الكلب محتفظاً بجلسته هذه أمام باب الفندق طول تلك المدة لا عمل له إلا النظر إلى غرفتنا وإطلاق هذا النباح الضاحك ؟ لقد سألت الكثيرين عما إذا كانوا قد سمعوا من قبل كلاباً تضحك أثناء نباحها فلم أجد أحداً يصدقنى .
وعندئذ طوقته بذراعيها وهى تقول فى حنان وديع :
— لقد ظل قابعاً كما ترى منذ غادرنا الفندق — ماذا

يضايقك فى هذا ؟ إننى واثقة الآن من أنه كان يضحك معنا . كان فرحاً لمرحنا . وقد عادت إليه الفرحة عندما أحس بأوبتنا .

ولما غادرا الفندق فى عصر ذلك اليوم اقترب ابن اليونانى الأعور من أبيه وقال له هامساً :

– كم كانت السيدة موفقة فى اختيار هذا الجرو من نتاج كلبنا القديم . إنه أكثر شبهاً بأبيه – فأجاب الأب العجوز :

– لا زلت مندهشاً . لم اهتمت السيدة هذا الاهتمام الشديد بشراء هذا الكلب والإنفاق على تربيته عندنا .

ولكن الابن لم يجب بل ابتسم ابتسامة الحزينة وهو يودع نزيلى الفندق فى الليلة الماضية وقد ابتعدا متعانقين فى طريقهما إلى القاهرة .

ولما وصلت إلى سمعه ضحكة مرحة اشتركا فى إطلاقها جفف دمعة حارة سالت على وجنته وعاد من الطريق يهرول إلى غرفته .

